www.kotobarabia.com

جغرافيا فلسطين وتاريخها

www.kotobarabia.com

مركز دراسات الشرق الاوسط

الباب الأول

جغرافية فلسطين وتاريخها

الفصل الأول: جغرافية فلسطين

الفصل الثاني: فلسطين عبر التاريخ

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

الفصل الأول

جغرافية فلسطين*

تشكل فلسطين الشطر الجنوبي الغربي من وحدة جغرافية كبرى في المشرق العربي، هي ما يعرف ببلاد الشام، التي تضم -فضلاً عن فلسطين-، كلاً من لبنان وسورية والأردن، ومن ثم كانت حدودها البرية مشتركة مع تلك الأقطار، فضلاً عن حدودها مع مصر. فالحدود مع لبنان تبدأ من رأس الناقورة على البحر المتوسط وتتجه بخط مستقيم شرقاً حتى ما وراء بلدة بنت جبيل اللبنانية عندما ينعطف الحد الفاصل بين القطرين شمالاً بزاوية تكاد تكون قائمة، ليطوق منابع نهر الأردن، فيضمها إلى فلسطين في ممر أرضي ضيق، تحده من الشرق الأراضي السورية حتى جنوب بحيرة طبرية، ومن هناك تبدأ الحدود مع الأردن عند مصب اليرموك، لتساير بعد ذلك مجرى نهر الأردن، ومن مصبه تتجه الحدود جنوباً عبر المنتصف الهندسي للبحر الميت فوادي عربة حتى رأس خليج العقبة. أما الحدود مع مصر فهي خط يكاد يكون مستقيماً يفصل بين شبه جزيرة سيناء وبين أراضي النقب، ويبدأ من رفح على البحر المتوسط إلى طابا على خليج العقبة. وفي الغرب تطل فلسطين على المياه الدولية المفتوحة للبحر المتوسط، مسافة تربو على ٢٥٠كم فيما بين رأس الناقورة في الشمال ورفح في الجنوب.

وتتألف الأراضي الفلسطينية البالغة مساحتها قرابة ٢٧ ألف كم٢ من ثلاث وحدات جغرافية رئيسية متمايزة، تمتد طولياً من الشمال إلى الجنوب عبر ما يقرب من

* أ. د. صلاح الدين البحيري، أستاذ الجغرافيا في الجامعة الأردنية.

أربع درجات عرضية ما بين خطي عرض ٢٩/٣٠َ و ٣٣/٢٧َ شمالاً، وتبدأ بالسهل الفلسطيني الساحلي في الغرب وتنتهي شرقاً بأراضي الحفرة الصدعية للأخدود الأردني، وبينهما تمتد مرتفعات وسط فلسطين التي تشغل القسم الأكبر من الرقعة الأرضية للبلاد.

أولاً: السهل الساحلي

أما السهل الساحلي فهو يشكل مثلثاً، رأسه يقع ما بين قواعد مرتفعات الجليل ومياه البحر المتوسط في الشمال، وقاعدته تجاه الحدود المصرية في الجنوب، ورغم الاستواء النسبي لسطح هذا السهل، فهو يرتفع وئيداً من مياه البحر المتوسط نحو الداخل، ليبدو كسهل مرتفع، تحف به قواعد مرتفعات وسط فلسطين من الشرق، حيث يعرف محلياً باسم سهل «سارونة»، وينفرد هذا القسم من أراضي فلسطين -فضلاً عن استوائه- بميزات جغرافية هامة، لعل أهمها مناخه البحري الذي يتصف باعتدال حرارته، فهو من أدفأ مناطق فلسطين شتاءً، وأدناها حرارة في فصل الصيف، فمعدلات الحرارة لا تتدنى دون ١٩م في شهر كانون الثاني، بينما لا ترتفع أكثر من ٢٦م في معدلات شهر آب. والأهم من ذلك عنصر الأمطار الشتوية الوفيرة، حيث تتلقى منحدرات سفوح الكرمل في الشمال ٨٠٠مم مما يدخل النص الشمالي من هذا السهل ضمن المناخ الرطب، بيد أن معدلات الأمطار تتضاءل بالاتجاه جنوباً بحيث لا يسقط على رفح في المعدل أكثر من ١٥٠مم سنوياً.

ولئن كانت الأمطار العميمة إحدى نعم الشطر الأكبر من هذا السهل، فإن وفرة المياه المخزونة في جوف أرضه نعمة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، فأحواض المياه الجوفية التي تمد عشرات المدن والبلدان بحاجات استهلاكها، إنما توجد على عمق يتراوح بين ٢٠ متراً و ٢١٠ أمتار تحت سطح الأرض، ومصدر هذه المياه هو الأمطار الغزيرة التي تهطل على المرتفعات الفلسطينية في الشرق، وتتسرب خلال فجوات الصخور ومفاصلها ومسامها، وتسري بعد ذلك جوفياً مع اتجاه ميل طبقات الصخور غرباً، وتظهر كعيون سخية أينما انكشفت الطبقات الحاملة للماء على امتداد خطوط التصدع، فهنا

توجد أكثر عيون فلسطين تدفقاً، بكل من نبع رأس العين، وعين نعمان، وعين كابري وغيرها مما يقع فعلاً على نطاقات تصدع أرضي.

التربة العميقة الخصيبة هي من ميزات مساحات واسعة من هذا السهل، فباستثناء رمال النطاق الساحلي، فإن النطاق الأوسط يتمتع بتربة رملية برتقالية إلى حمراء اللون، تغلف حبيباتها أغشية من مادة طينية، تلونها أكاسيد الحديد والألومينيوم ومركبات معدنية أخرى، وبالتالي يتوافر لهذه التربة الخصب لاشتمالها على طائفة من المعادن اللازمة لنمو النبات، فضلاً عن جودة الصرف بفضل خشونة جزيئاتها، فكانت لذلك بيئة مثلى لزراعة الحمضيات، وبخاصة البرتقال لأغراض التصدير[١].

أما الأراضي السهلية بمحاذاة قواعد المرتفعات الفلسطينية، فتسودها أنواع من التربة المتوسطية الحمراء " تيراروزا "، نقلت من على أسطح الهضاب بوساطة مجاري الأودية، وزادها غنى المخلفات العضوية لنباتات المستنقعات التي شغلت مساحات منها في عصر جيولوجي سابق، ومن ثم ثقل قوامها، مما أهلها لزراعة الخضر والحبوب ونباتات العلف والبنجر والقطن. ولكن بالاتجاه جنوباً، تتلاشى الأنواع السابقة من التربة، لتحل محلها أنواع من الترب الهوائية المعروفة بالليس تجاه أراضي شمالي النقب، فإذا ما اختلط هذا النوع بنسب من التربات الرملية الحمراء في بعض المناطق، نتج عن الخليط، أرض زراعية غاية في الجودة.

لكل هذه الميزات؛ فقد استصلحت معظم الأراضي السهلية القابلة للزراعة، وأقيمت عليها القرى والمدن والتجمعات السكانية، فتحولت السهول الساحلية فعلاً إلى مركز الثقل السكاني والعمراني والاقتصادي، حيث يذكر أن ٧٧٪ من السكان يقطنون هذا الجزء في الوقت الحالي، وتؤدي الشقة البحرية دوراً اقتصادياً هاماً، بفضل وجود موانئ حيفا وأشدود وعسقلان، كما أن رمال الشواطئ، والمياه البحرية الدافئة النظيفة، تشكل مورداً هاماً للسياحة والترويح[٢].

ثانياً: مرتفعات وسط فلسطين

وتنقسم هذه المرتفعات إلى قسمين، ففي الشمال تمتد مساحة كبيرة من الأراضي التلية، تعرف فزيوغرافياً باسم السلسلة الفقرية لمرتفعات وسط فلسطين، وهي أراض تتميز بشدة تعقد بنيتها، التي يعبر عنها انطواء قوسي مركب ، بامتداد محور عام يزيد طوله على ٢١٠ كيلو مترات ما بين تلال الجليل في الشمال ومرتفعات الخليل في الجنوب[٣]، وفضلاً عن وضوح قوى الطي والتصدع، التي نجم عنها عدد من البنيات المحدبة كجبل حلحول في الخليل (١٠٢٠متراً)، وأخرى مقعرة كجبل جرزيم وعيبال في نابلس (٩٤٠متراً) ، فإن عوامل التعرية المائية أسهمت في شدة تعقد المظهر الطبوغرافي، حيث تمزق السطح أعداد من الأودية الخانقية السحيقة، أعطت هذا القسم مظهراً جبلياً رغم تواضع المناسيب، فمن ذرى المرتفعات، تنبع العديد من الأنهار الدائمة، والأودية السيلية، فتنحدر قنواتها على الجانبين، منتهية إلى البحر المتوسط في الغرب، وإلى نهر الأردن والبحر الميت في الشرق، ومن أشهر الأنهار نهر المقطع ونهر الأزرق على الجانب الغربي، ووادي الفارعة ووادي البيرة في الشرق.

وتتجلى بهذه المرتفعات عناصر البحر المتوسط في مناخها، ونباتها الطبيعي وتربتها ومزروعاتها. والاعتدال النسبي هو السعة الغالبة على الحرارة، حيث معدل أبرد الشهور بالقدس كانون الثاني ٩,٧°م، وأحرها آب 25م، ولكن تهبط معدلات النهايات الصغرى شتاء إلى 4°م. أما المطر فانعكاس لعامل المنسوب، حيث تزيد الكمية على ٧٥٠مم بالجليل، و ٦٠٠مم بأعالي مرتفعات رام الله والخليل، وتهبط إلى ٤٠٠مم عند قواعد التلال المشرفة على السهل الساحلي في الغرب، وإلى نصف ذلك القدر على المنحدرات الشرقية المطلة على منخفض الغور والبحر الميت[٤]، وفي ظل الظروف الطبيعية تنمو أحراج دائمة الخضرة من البلوط والبطم الفلسطيني بالمناطق التي يتجاوز

ارتفاعها ٣٠٠ متر، وما دون ذلك من مناسيب تسوده أشجار الخروب وشجيرات كثيفة من أنواع شوكية.

وتغطي السفوح بمناطق الصخور الجيرية تربة متوسطية حمراء، أما مناطق الصخور الطباشيرية فينتج عنها أنواع من التربة الكستنائية من نوع الرند زينا غنية بالمواد العضوية، وكلا النوعين من التربة، استغله الفلاح الفلسطيني بالمنطقة منذ آلاف السنين، لإنتاج حاصلاته الحقلية من الحبوب الشتوية، وحدائق الخضراوات، فضلاً عن الأشجار المثمرة على السفوح المدرجة، وأهمها الزيتون والكروم واللوزيات والتفاحيات، أما الأراضي الحجرية المهملة، فترعاها القطعان من الماعز والأغنام(٥).

ورغم وعورة السطح، ورقة التربات الحجرية، وقلة الينابيع والعيون، كانت تلال وسط فلسطين على الدوام، مقراً لمراكز العمران القروي، التي تغاضى أهلها عن صعوبات البيئة في سبيل الأمن، فقد كانت قبائل البدو الشرسة، وعصابات الخارجين على القانون، تجتاح المناطق السهلية في يسر، وتسوم الفلاحين أصناف العذاب من سبي ونهب وتشريد، فانعكست هذه الظروف على نظم حيازة الأرض واستخداماتها، فتركها سكانها بوراً، ونزحوا إلى المناطق المرتفعة، وتحصنوا بروابيها، حيث نشأت مجموعة كبيرة من القرى الكنعانية، من أكبرها القدس (يبوس) ونابلس (شكيم) والخليل، التي تحولت فيما بعد إلى مدن عامرة ومحطات على طرق القوافل، ودارت في فلك كل منها عشرات القرى الزراعية في الريف.

والقسم الجنوبي من مرتفعات وسط فلسطين عبارة عن هضاب النقب المتواضعة المنسوب، التي تربو مساحتها على عشرة آلاف كيلو متر مربع، وهي رقعة مثلثة الشكل، تمتد قاعدتها بمحاذاة المنحدرات الجنوبية لجبال الخليل، ويقع رأسها قرب خليج العقبة، بينما يحدها شرقاً وادي عربة وغرباً سهول غزة وصحراء سيناء وينبسط سطح هذه الهضاب ويتسع شمالاً وينحدر منسوبه من ستمائة متر قرب حدود سيناء في الجنوب

الغربي إلى ما يقرب من مائة متر فقط في الشمال عند دخول وادي الحبيب حافة المنخفض الأخدودي لوادي عربة، ومن ثم تفضي هذه الهضاب شمالاً إلى تلال وسط النقب، وحيث تتجاوز الكثير من قممها الألف متر فوق مستوى سطح البحر، والتلال هنا عبارة عن طيات أرضية محدبة، تمتد على محاور متوازية تقريباً تتجه بشكل عام من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. ومع هذا هناك عدد من المنخفضات الحوضية التي ترصع سطح الأرض في بعض جهات النقب الأوسط، حيث تظهر فجواتها وكأنها المدرجات الرومانية، إذ تطوقها حوائط صخرية وعرة.

وإلى الشمال من تلال وسط النقب يوجد منخفض بئر السبع الحوضي، الذي يهبط تدريجياً من ٥٠٠ متر على جانبه الشرقي، إلى منسوب يقرب من ٥٠ متراً فقط تجاه أطرافه الغربية، ويعتقد بأن هبوط قشرة الأرض هنا ارتبط بالحركات الأرضية التي تمخضت عن نشأة أخدود البحر الميت نحو أواخر الحقب الجيولوجي الثلاثي. وقد تكدست فوق أرض هذا المنخفض طبقات سميكة من تربة اللويس، توضعت بفعل الرياح، وعلى الرغم من خصوبتها النسبية، لاشتمالها على العناصر اللازمة لنمو النبات، إلا أن دقة حبيباتها وكتامة مساماتها تجعلها عرضة للانجراف بفعل مياه الأمطار السيلية الشائعة هناك، التي تشكل أعداداً لا تحصى من الأخاديد والشعاب والروافد التي تنتهي لوادي غزة، قادمة من تلال وسط النقب، ووادي بئر السبع بروافده المتأصلة في سفوح جنوب وجنوب غرب الخليل.

تغطي كثبان الرمال زهاء خمسمائة كيلو متر مربع من أراضي بئر السبع، وذلك في القسم الجنوبي الغربي الملاصق للحدود المصرية، حيث تمتد مفازة رملية، رحبة، تغشي معظم الشطر الشمالي من شبه جزيرة سيناء، وتستقر كثبان منطقة بئر السبع فوق مسطحات من تربة اللويس، التي تظهر مساحات منها عارية تماماً من أشرطة الكثبان.

والنقب برّية قاحلة محدودة الإمكانات، فباستثناء مشارفها الشمالية شبه الجافة التي تتلقى من الأمطار ما يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٥٠مم سنوياً، فإن بقية أرجاء النقب لا تنتج شيئاً من الزرع إلا بمياه الري، فأكثر من نصف مساحة النقب صحراء لا يصيبها من المطر سوى ٥٠مم أو أقل[٦]، فهي بذلك امتداد مناخي لبيئة سيناء أو وادي عربة.

ثالثاً: الأخدود الأردني

تمتد حفرة الوادي الأخدودي بالأراضي الفلسطينية الأردنية مسافة تبلغ حوالي ٤٦٠ كيلومتراً في خط مستقيم بين قواعد جبل الشيخ في الشمال وخليج العقبة في الجنوب، وقد نشأ هذا الأخدود نتيجة لحركات انزياح أفقية لصفيحتين تكتونيتين من صفائح القشرة الأرضية في اتجاهين متعارضين فضلاً عن تخلعات رأسية أدت إلى غور شريحة أرضية طولية، مشكلة قاع الأخدود، في حين نهضت هضاب شرق الأردن وفلسطين على الجانبين إبان عصور جيولوجية عديدة. ورغم تشابه السمات البنيوية والمناخية العامة لأراضي هذا الأخدود، فإن امتداده الطولي المفرط، قمين بإبراز عدد من أوجه التمايز بين بقاعه، بما يبرر تقسيمه إلى أنماط فرعية هي: وادي الأردن وروافده، وحوض البحر الميت وملاحاته، وأخيراً وادي عربة.

ويتألف القسم الأعلى من نهر الأردن من اتحاد روافده الثلاثة بانياس وبلودان والحصباني، ليدخل إلى بحيرة الحولة على ارتفاع ٧٠ متراً فوق مستوى سطح البحر، وليخرج منها نهر الأردن مسافة سبعة كيلو مترات، بعدها يجري النهر في خانق ضيق شديد الانحدار، عنيف التيار مسافة ١٥ كيلو متراً، ليصب في بحيرة طبرية على منسوب ٣١٢ متراً تحت مستوى سطح البحر، وبعد أن يخرج نهر الأردن من البحيرة، يرفده على بعد بضعة كيلو مترات إلى الجنوب منها نهر اليرموك، الذي يقابل مصبه على الجانب الفلسطيني سهل بيسان، وهناك تتشعب حفرة الأخدود في اتجاه شمالي غربي، كممر بين

مرتفعات نابلس والكرمل، وبين منحدرات تلال الناصرة، حيث يفضي هذا الممر لسهل مرج ابن عامر، وهو سهل خفيض متماوج، يعلو ما بين ٢٠ و ٥٠ متراً فقط فوق مستوى سطح البحر، وتكسوه تربة سوداء ثقيلة غاية في الخصب.

ويتابع نهر الأردن جريانه جنوباً، في قناة شديدة التعرج بقاع المنخفض، الذي يهبط مستواه بسرعة، إلى أن يصب النهر في البحر الميت على منسوب يقل حالياً عن ٣٩٥ متراً تحت سطح البحر، ويواكب تدني منسوب سطح الأرض في حوض وادي الأردن، تناقص ملموس في المعدلات السنوية للأمطار، فهي أكثر من ٤٠٠مم في الأحباس العليا، وأقل من ١٤٠مم على خط عرض أريحا، لتصبح أقل من ١٠٠مم عند الساحل الشمالي للبحر الميت. ويحف القناة النهرية للأردن على الجانب الفلسطيني، شريط من التلال الوعرة الممزقة تعلو بضع عشرات من الأمتار عن ماء النهر، وتتألف من طبقات رواسب الرمل والحصى والطين، تعرف محلياً باسم أرض الكتار[٧]، تحصر بينها وبين قواعد المرتفعات الفلسطينية نطاقاً سهلياً يرتفع في هوادة صوب الغرب، تصلح مساحات واسعة منها للإنتاج الزراعي كمنطقة أريحا والعوجا والجفتلك. ولا يرفد النهر من الجانب الفلسطيني سوى عدد صغير من الأودية ، وهي قليلة الماء باستثناء وادي جالود والفارعة.

أما حوض البحر الميت، فيشغل الحفرة الوسطى بأعمق قطاعات حفرة الأخدود، الذي هو في الوقت نفسه أدنى بقاع سطح اليابس، حيث يغور قاع البحر تجاه الأردن في الشرق أقل قليلاً من ثمانمائة متر دون مستوى سطح البحر، ويبلغ طول هذا القسم حوالي مائة كيلو متر، تغطي مياه البحر الميت منها سبعين كيلو متراً، والجزء الباقي تغطيه سبخة قاع الصافي ومستنقعات سدوم الملحية في الجنوب، ويبلغ الرصيد المائي الدائم للبحر الميت ١٤٠ كيلو متراً مكعباً، ينتشر على رقعة أرضية مساحتها ٩٤٠ كيلو متراً مربعاً[٨]، إلا أن هذه الأرقام في تناقص مستمر بفعل تحويل مياه روافد الأردن العذبة على الجانبين الأردني والفلسطيني، مما أنقص الإيراد المائي لصبيب نهر الأردن إلى البحر، أما الأودية التي تنبع من مرتفعات الخليل وتصب في هذا البحر، فهي مجرد مجار سيلية لا

تفيض بالماء إلا لماما، فضلاً عن عدد من الينابيع المالحة التي تنبثق من السفوح الدنيا للمرتفعات، أشهرها وأكبرها عين الفشخة عند الطرف الشمالي للبحر، وعين جدى إلى الجنوب.

ومياه البحر الميت أشد ملوحة من أي مسطح مائي آخر على وجه الأرض، إذ تبلغ نسبة ملوحته أكثر من تسعة أمثال مياه المحيطات، فتتراوح بين ٣٠٪ قرب السطح، وأكثر من ٣٣٪ بالأعماق، ويعزى ارتفاع نسبة المواد الصلبة المذابة في مائه، إلى عظم معدلات التبخر التي تزيد على ألفي ميليمتر سنوياً، مع قلة مياه الأمطار التي تسقط عليه مباشرة لأقل من ٥٠مم. على أن أهم مصادر الأملاح هي مياه الينابيع المعدنية المنبثقة من جوفه وجوانبه مباشرة، لذا تخلو مياه هذا البحر من الحياة المائية، غير أن تلك الأملاح هي أعظم موارده الاقتصادية.

وإلى الجنوب من قاع الصافي يستمر الأخدود مسافة تزيد على ١٥٠ كيلو متراً فيما يعرف بوادي عربة، ويتدرج قاع الوادي في الارتفاع جنوباً، ليبلغ منسوب أعلى بقاعه نحو ٢٤٠ متراً فوق مستوى سطح البحر، وذلك على مسيرة قرابة ٦٠ كيلو متراً من غور الصافي، وبعدها يأخذ منسوب أرضه في الهبوط مرة أخرى، إلى أن يصل مستوى سطح البحر على شاطئ خليج العقبة. ويغطي قاع المنخفض على امتداد هذه المسافة ثلاثة أصناف من الرواسب. هي: الرواسب الحجرية للمراوح الفيضية، والرمال الهوائية، والمسطحات الطينية[٩].

أما رواسب المراوح الفيضية، فهي مجمعات هائلة من الجلاميد وخليط من الحصى والرمال الخشنة، التي جلبتها مياه السيول، عندما تفيض بها أودية الحافة الجبلية على الجانب الأردني، وتلك التي تنحدر من مرتفعات النقب على الجانب الفلسطيني، فتحت مخارج هذه الأودية، تنتشر الرواسب كأشكال مروحية، تعلو رؤوسها عند حضيض المرتفعات، وتنفرج قواعدها هابطة تجاه قاع وادي عربة، وفي كنف ظروف الجفاف والحرارة العالية والتربة الحجرية، فإن أشجار السنط (الطلح) الشوكية هي النوع النباتي

السائد، إذ ترى أكماتها تتأثر بكثافات عالية أحياناً في كثير من المواضع. وبالنسبة لرواسب الرمال الهوائية، فإن مصدرها الرئيسي مجموعة الأودية التي تتأصل في تكوينات الحجر الرملي بمرتفعات الجانب الأردني من وادي عربة، وذلك عندما تحمل دفقات السيول حبيباتها لتحطها على قاع المنخفض، فتذروها الرياح الشمالية الغربية الجافة، وتعيد أرسابها على شكل كومات من النبك حول شجيرات الغضى والغردق، فتتشكل منها القصائم، وتنمو وتتحول إلى أشرطة من الكثبان العرضية المتوازية، يبلغ طول الواحد منها كيلو متراً واحداً أو أكثر، وارتفاعها بين ٨و١٤ متراً، وعرضها عند القاعدة أربعة أمثال علوها، في حين تفصل بين سلاسلها ممرات أرضية خالية من الرمال، يتراوح اتساعها بين ٥٠ و٨٠ متراً، وتغشى هذه الأشكال الكثيبية مساحة شاسعة من سطح وادي عربة الأوسط، وفيما بين قاع السعيديين في الشمال وسبخة طابة في الجنوب[١٠].

ويغور سطح وادي عربي في بعض البقاع مشكلاً ثلاثة منخفظات مغلقة، أكبرها سبخة طابة الكمثرية الشكل، ذات المساحة الرابية على ٤٥ كيلو متراً مربعاً، نصفها على الجانب الفلسطيني من الحدود، ويتألف سطحها من مواد طينية، وتكسوه في بعض المواضع قصرة ملحية، لذا يخلو وجه السبخة المستوي من النبات، وبينما تقع هذه السبخة على مسيرة ٣٥ كيلو متراً شمالي العقبة، هناك سبخة أخرى صغيرة تدعى الدافية على بعد عشرة كيلو مترات من العقبة، وهي شريط أرضي ضيق، يقل عرضه عن كيلو مترين، بينما يتجاوز طوله اثني عشر كيلو متراً، وتقسمها الحدود مناصفة بين الأردن وفلسطين، ولأرضها خصائص سبخة طابة نفسها. وأخيراً هناك قاع السعيديين على بعد ٧٠ كيلو متراً من العقبة، وتستر وجه هذا القاع فرشات من الرمال لعمق غير معروف.

الهوامش

١. صلاح الدين بحيري، أرض فلسطين، الأردن: طبيعتها وحيازتها واستعمالاتها. معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٠-٢٣.

2. Karman, Y. , Israel, a Regional Geography. London, 1977, p80.
3. Willis, B., "Dead Sea Problem: Rift Valley or Ramp Valey", Bull. Geol. Soc. Amer. Vol. 39, 1928.

٤. الأرقام معممة عن المصدر التالي: سلطة المصادر الطبيعية – قسم الدراسات المائية، الأمطار في الأردن، عمان ١٩٦٧، جدول رقم (٤).

٥. صلاح الدين بحيري: أرض فلسطين، الأردن. (مصدر سابق)، ص٢٨.

6. Karman, Y., op, cit., pp. 297-299.

٧. صلاح الدين بحيري: جغرافية الأردن. مكتبة الجامع الحسيني، عمان ١٩٩١، ص٨٩.

8. Bentor, Y. K., "Dead Sea", in :Fairbridge, R. W., ed., The Encyclopedia of Geomorphology, New York, 1968, pp. 243-244.

٩. صلاح الدين بحيري: جغرافية الأردن، (مصدر سابق)، ص١٠٣.

١٠. صلاح الدين بحيري، ويحيى فرحان: نجاد الحافة الشرقية لوادي عربة. منشورات الجامعة الأردنية ١٩٨٩، ص٤٣-٤٦.

الفصل الثاني: فلسطين عبر التاريخ

القسم الأول: تاريخ فلسطين القديم*

مقدمة

فلسطين اليوم هي المنطقة الواقعة بين نهر الأردن شرقاً، والبحر الأبيض المتوسط غرباً، والبحر الأحمر وسيناء جنوباً، وسوريا ولبنان شمالاً. هذه البقعة والمساحة من الأرض أطلق عليها العديد من التسميات عبر العصور المختلفة، وعالجها الكثير من الباحثين[١]. ولقد اهتم الباحثون وبخاصة الأجانب منهم، بدراسة تاريخ هذه المنطقة وآثارها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا، فقدموا لنا العديد من الدراسات بلغات مختلفة جاء معظمها على شكل تقارير لنشاطات أثرية ميدانية أو كتباً تحكي التاريخ القديم لفلسطين[٢]. أما بالنسبة لما كتب باللغة العربية فقد جاء قليلاً مقارنة مع ما كتب باللغات الأجنبية، واعتمد الباحثون على ما نشره الدارسون الأجانب في تقديم صورة عن العصور القديمة في فلسطين والتي يسرت للإنسان العربي فهم هذه المرحلة الطويلة من حياة الإنسان[٣]، ولهذا فهي تحتاج إلى أن يفرد لها مجلدات عديدة متخصصة حتى يستطيع الكاتب أن يبين الصورة التاريخية الفلسطينية، ودراسة الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلال العصور القديمة.

ويعتقد كثير من الباحثين أن التفسيرات العلمية التي ترتبت على النشاطات الميدانية والنظرية خاصة التي جرت في فلسطين خلال النصف الأول من هذا القرن وما قبله قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعدد من الأهداف والدوافع السياسية والدينية[٤].

* أ. د. زيدان الكفافي، مدير معهد الآثار، الأنثروبولوجيا – جامعة اليرموك.

لقد لعب موقع فلسطين المتوسط بين القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا دوراً كبيراً في كتابة تاريخها. ونظراً لأن فلسطين تمثل الجزء الجنوبي من بلاد الشام التي كانت معبراً للجيوش المصرية والآشورية والبابلية في حملاتها ضد بعضها البعض في العصور القديمة، فقد خضعت لهذه القوى الكبرى لفترات متفاوتة وارتبط تاريخها بهذه الدول. لكن هذا لا يعني أن الحضارات التي نشأت على أرض فلسطين هي من صنع هذه القوى، وإنما من صنع ساكنيها الذين تأثروا -إلى حد بعيد- بالقيم التراثية الحضارية المجاورة لهم والمعاصرة لفترة وجودهم. كما يجب أن نذكر هنا أيضاً أن الصلات التجارية بين فلسطين والمناطق الأخرى تعود إلى مرحلة نشوء القرى الزراعية الأولى (قبل حوالي عشرة آلاف عام) مما جعلها موضع تأثر وتأثير.

وقد نشأ على هذه الأرض عدد من الحضارات من أقدم العصور وحتى الوقت الحالي صنفها العلماء في جداول زمنية تبدأ من العصور الحجرية وتنتهي في الوقت الحالي. لكننا نعتمد في هذه الدراسة الجدول الزمني التالي:

أ- العصور الحجرية (حوالي ١,٥ مليون – ٣٢٠٠ق.م.) مقسمة على النحو التالي:

١- مرحلة جمع القوت والصيد (Palaeolithic) حوالي (١,٥مليون سنة إلى ١٩,٠٠٠ ألف سنة من الآن).

٢- المرحلة الانتقالية من جمع القوت إلى إنتاج الطعام (Epi-Palacolithic) حوالي (١٩,٠٠٠-١٢,٥٠٠ سنة من الوقت الحاضر).

٣- القرى الزراعية Neolithic (حوالي ١٢,٥٠٠-٦,٠٠٠ سنة من الوقت الحاضر).

٤- القرى الزراعية الحرفية Chalcolithic أو ما يسمى العصر الحجري النحاسي (حوالي ٦,٠٠٠ – ٥,٢٠٠ سنة من الوقت الحاضر).

ب- العصور البرونزية (حوالي ٣,٢٠٠-١,٢٠٠قبل الميلاد) ويقسم إلى:

١- العصر البرونزي القديم (حوالي ٣,٢٠٠ – ٢,٠٠٠ ق.م.).

٢- العصر البرونزي المتوسط (حوالي ٢,٠٠٠ - ١,٥٥٠ ق.م.)

٣- العصر البرونزي الحديث (حوالي ١,٥٥٠ - ١,٢٠٠ ق.م.).

جـ- العصر الحديدي (حوالي ١,٢٠٠ - ٥٨٦ ق.م.).

د- فترة الحكم البابلي / الفارسي (حوالي ٥٨٦ - ٣٣٢ ق.م.).

هـ- الفترة الهللنستية (حوالي ٣٣٢ - ٦٣ ق.م.)

و - الفترة الرومانية (حوالي ٦٣ ق.م. - ٣٢٤ م.).

ز- الفترة البيزنطية (حوالي ٣٢٤ - ٦٣٦م)

وفيما يلي استعراض موجز لأهم ما في كل مرحلة من هذه المراحل، وبما يتفق وفلسفة الدراسة العامة، ويخدم الفهم الصحيح للقضية الفلسطينية. علها تفتح الأبواب أمام القارئ الكريم، لعلمنا أن المجال لا يتسع هنا لتقديم دراسة تفصيلية عن كل مرحلة من المراحل التي عاشت فيها المجتمعات البشرية على أرض فلسطين.

١- مرحلة الصيد والجمع والتنقل: (Palaeo lithic)

أمّ الإنسان فلسطين منذ بدايات العصور الحجرية القديمة وجاءت أقدم آثاره منتشرة في عدد من المواقع في جبال الجليل والكرمل وكان أقدمها موقع العبيدية الذي أرخه المنقبون لحوالي ١,٥ مليون سنة[٥]. ونستطيع استنباط الكثير من المعلومات حول هذه المرحلة من خلال اطلاعنا على نتائج الحفريات التي أجريت منذ مطلع هذا القرن مثل حفريات. F.و Turville Petre في منطقة الجليل[٦]، و D.Garrod في كهوف جبال الكرمل[٧] وR.Neuville في منطقة بيت لحم [٨] وأخيراً نشاطات البعثات الأثرية الفرنسية من جامعة بوردو في شمالي فلسطين.

وقد عاش الإنسان خلال مرحلة العصر الحجري القديم متنقلاً من مكان لآخر جامعاً ولاقطاً لقوته اليومي. واستعمل هذا الإنسان أدوات متعددة أقدمها ما عرف بالأدوات الأبيفيلية[٩] ومن ثم الآشولية وعثر عليها في عدد من المواقع منها العبيدية إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية وجسر بنات يعقوب في غور الأردن. كما نجد أن الإنسان

قد أوى إلى الكهوف في هذه المرحلة، ومن هذه الكهوف كهف الطابون بالقرب من حيفا وكهف أم قطفة بالقرب من بيت لحم.

أما المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم (حوالي ١٠٠,٠٠٠ – ٤٠,٠٠٠ سنة من الآن) فقد أطلق بعض العلماء عليها اسم الموستيرية. وقد عثر على بقايا تعود لهذه المرحلة في عدد كبير من المواقع المنتشرة في مختلف أنحاء فلسطين مثل جبال الكرمل (كهوف الطابون والسخول والكبارا)، وفي سهل الحولة (مثل مغارة القفزة بالقرب من الناصرة ومغارة العامود) وفي مناطق القدس والخليل.

ويبدو أن الإنسان الذي عاش في هذه الفترة والذي يسمى بإنسان نياندرتال (Neandertal) قد توصل إلى معرفة عادة الدفن، حيث عثر في مغارة السخول ومغارة القفزة على مدافن. ففي الموقع الأخير، عثر على مدفن لشخصين أحدهما بالغ والثاني طفل يبلغ عمره حوالي الست سنوات. وفي مدفن آخر عثر على شخص يبلغ عمره ١٣ عاماً ملقى على ظهره ويداه موضوعتان بشكل مثني على الصدر وفوقهما قرن وعل.

إن الانتقال من المرحلة الموستيرية إلى بداية المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم أصبح واضحاً للعلماء وأقل مثاراً للجدل عنه في الوقت السابق لا سيما بعد العثور على بقايا الإنسان العاقل (Homo Sapieus) في كهف القفزة. وقد عثر على بقايا هذا الإنسان في عدد من كهوف جبال الكرمل (قبل الواد والكبارا) وفي جبال الجليل (مثل كهف الأميرة) وفي منطقة بيت لحم والخليل (مثل مواقع عرق الأحمر والخيام).

وأخيراً، وباختصار فإنه يظهر لنا بأن التحركات البسيطة لمجموعات الإنسان الذي عاش خلال العصور الحجرية القديمة، والذي كان ما يزال صياداً وجامعاً للقوت قد كونت أساساً لوحدات اجتماعية خلال هذه المرحلة. لكن هذه الوحدات الاجتماعية المختلفة احتفظت بطرق الصناعات التقليدية التي كانت مستعملة منذ آلاف السنين.

٢- المرحلة الانتقالية من جمع القوت إلى إنتاج الطعام

تمثل هذه المرحلة بداية التغير في البيئة إلى الأحوال التي نعيشها حالياً، ونتج عن هذا قلة في المصادر الحيوانية والنباتية مما حدا بالإنسان أن يتجمع في مستوطنات صغيرة المساحة. لقد عثر F. Turville-Petre في أثناء حفرياته في مغارة الكبارا عام ١٩٣١م على أدوات صوانية صغيرة الحجم تبلغ أطوالها أقل من ٥ سم، وأعتقد أن هناك بعض التشابه مع الأدوات الصوانية الناطوفية التي كانت قد اكتشفت سابقاً، لكن هذا لم يثبت إلاّ بعد اجراء العديد من الحفريات في مواقع فلسطينية متعددة، وعليه أصبحت هذه المرحلة التي تمتد من حوالي ١٩,٠٠٠ - ٢١,٥٠٠ سنة من الآن تضم ثقافتين هما:

١ - الكبارية (وتنقسم إلى الكبارية والكبارية الهندسية).

٢ - الناطوفية.

وقد عثر المنقبون على دلائل في موقع خربة العاشق (Ain Guev) على الساحل الشرقي لبحيرة طبريا تشير إلى وجود بقايا عمائرية من الثقافة الكبارية ربما سكنتها مجموعة من الصيادين وجامعي القوت لفترة من الوقت.

وتعتبر المرحلة الناطوفية بمثابة الخطوة الأولى للمجتمعات الزراعية في بلاد الشرق الأدنى القديم. وما يزال بعض العلماء يطلق عليها اسم العصر الحجري الوسيط (Mesolithic)[١٠]، وتشكل مرحلة انتقالية ما بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، أو بعبارة أخرى ما بين حياة التنقل والتجوال وحياة مستقرة حيث أصبح الإنسان منتجاً لقوته اليومي.

وسميت الصناعة في هذه المرحلة بالناطوفية، حيث تم التعرف عليها لأول مرة في مغارة شقبة في وادي الناطوف بالقرب من القدس. وقد عثر على بقايا من هذه الثقافة في عدد كبير من المواقع في فلسطين، أهمها: عين الملاحة في سهل الحولة، ومغارة الواد،

ومغارة كبارا، ووادي الفلاح في جبال الكرمل، ومغارة الحمام في الجليل الأعلى، وعرق الأحمر، وأم زويتينة، والخيام في منطقة بيت لحم.

ومما يميز الثقافة الناطوفية أن الإنسان قد خرج من داخل الكهف في بعض الأحيان وبنى لنفسه كوخاً أمام الكهف، وجاءت المساكن الناطوفية دائرية الشكل كما هو الحال في موقع عين الملاحة[١١].

بانتهاء هذه اللمحة الموجزة عن الثقافة الناطوفية نكون أنهينا الحديث حول حياة الإنسان الذي عاش متنقلاً وجامعاً ولاقطاً لقوته اليومي وسكن الكهوف ومواقع في العراء لبعض الوقت. لكن هذا الإنسان لم يستقر بشكل ثابت ولم ينتج طعامه اليومي إلاّ قبل حوالي ١٠,٥٠٠سنة، وكان هذا على الأغلب في منطقة غور الأردن وربما في موقع أريحا والمنطقة المحيطة به بالذات.

الفلاحون الأوائل في فلسطين (العصر الحجري الحديث)

مع نهاية الألف التاسع قبل الميلاد حصل تطور هائل في طبيعة حياة المجتمعات البشرية الفلسطينية، إذ نجد أن سكان منطقة أريحا كانوا يمارسون زراعة الحبوب وتبعها في مرحلة لاحقة تدجين الحيوانات. وكان لهذا التطور المحلي تأثير هائل في أنماط المعيشة وطبيعة المجتمع الذي استطاع التعامل مع البيئة المحيطة به، والاعتماد على نفسه في إنتاج غذائه، الذي استطاع أن يبني له بيتاً لسكنه طيلة أيام السنة. وبدأت تظهر خلال هذه المرحلة طبقة من الحرفيين وأخرى من العمال، إضافة إلى المتاجرين بالسلع، ونعتقد أن هذه التركيبة الاجتماعية قد ترسخت خلال الألف الرابع قبل الميلاد.

وقد قسم العلماء مرحلة القرى الزراعية الأولى في فلسطين أو ما يعرف باسم العصر الحجري الحديث إلى مرحلتين رئيسيتين هما:

١-العصر الحجري الحديث السابق لصناعة الفخار (حوالي ٨٥٠٠ - ٥٥٠٠ق.م.).

٢-العصر الحجري الحديث الفخاري (حوالي ٥٥٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م.)

وتنقسم مرحلة ما قبل الفخار إلى ثلاث مراحل فرعية:

أ – من حوالي (٨٥٠٠ – ٧٥٠٠ ق.م.): وفيها جاءت البيوت مستديرة الشكل مبنية من لبن طيني على أساسات حجرية كما في أريحا، وفي مواقع فلسطينية أخرى مثل: وادي الفلاح بالقرب من حيفا، وجلجال شمال أريحا. وتدل البقايا العمائرية مجتمعة التي تم اكتشافها، على وجود مجتمع منظم في ذلك الوقت، كما تؤكد أن سلطة قوية قد أشرفت عليه.

ب– من حوالي (٧٥٠٠ – ٦٠٠٠ ق.م.).

جـ– من حوالي (٦٠٠٠ – ٥٥٠٠ ق.م.).

اعتقدت كاثلين كينون أن موقع أريحا قد هجر لفترة من الوقت قبل أن تعاد سكناه في حوالي ٧٠٠٠ ق.م. وقد تميزت هذه المرحلة عن سابقتها في عدد من النواحي العمرانية والاقتصادية. فالبيوت مبنية بشكل مربع أو مستطيل، وكان الإنسان ما يزال يعتمد الصيد إلى جانب الزراعة في تأمين مصادره الغذائية، وظهرت في موقع أريحا بوادر الحيوانات المدجنة مثل الماعز والكلب إلى جانب الحيوانات غير الأليفة (الخنازير والماشية)، كما عثر على بذور نباتات زرعها سكان أريحا تكونت من الشعير والقمح والبازيلاء والعدس. وقد دفن سكان فلسطين –كغيرهم من سكان بلاد الشام– موتاهم تحت أرضيات بيتهم خلال الألف السابع قبل الميلاد.

ويعتقد كثير من العلماء أنه في حوالي ٦٠٠٠ ق.م. حصل تغير مناخي أدى إلى هجران مجموعة من المواقع الأثرية الفلسطينية لمدة تقارب خمسمائة عام، ومن ثم أعادت سكناها مجموعات بشرية جلبت معها صناعة الأواني الفخارية، فأطلق العلماء عليها اسم العصر الحجري الحديث الفخاري. وإضافة للمواقع المعروفة سابقاً مثل تل الشيخ علي والمنحطة وأريحا ظهرت مواقع جديدة مثل القحوانة «شعار هجولان» وتل المتسلم وتليلات البطاشي، وغيرها. وتميزت الفترة الواقعة ما بين ٥٥٠٠ – ٤٠٠٠ ق.م. بظهور أنواع متعددة من الأواني الفخارية إضافة للأدوات الصوانية. واعتمد الإنسان خلال هذه المرحلة في حياته اليومية على الزراعة وتربية الحيوانات وصيد الأسماك والحيوانات. وفي حوالي ٤٥٠٠ ق.م. أخذ الإنسان يبني لنفسه منازل منتظمة الشكل.

القرى الزراعية الحرفية "العصر الحجري النحاسي"

لم تكن مرحلة الانتقال من العصر الحجري الحديث إلى هذه المرحلة حاسمة من حيث التغير في أنماط المعيشة ووسائل الإنتاج، إلا أن العاملين في الآثار آثروا الفصل بين العصرين نتيجة لوجود بعض المتغيرات في بعض المكتشفات الأثرية كالأواني الفخارية والأدوات الصوانية والعظمية، إضافة إلى الحدث الأهم ألا وهو استخدام مادة النحاس في تصنيع الأدوات والأواني.

وتوجد قرى هذا العصر على الأغلب، حول الأودية والأنهار ومصادر المياه الدائمة وفي المناطق الخصبة أو مناطق أخرى كان من السهل على السكان استغلالها وجلب المياه إليها. وبدا واضحاً للعلماء زيادة عدد المواقع السكنية مما يدل على ازدياد عدد السكان، وذلك على الرغم من استرداد نمط المجتمعات القروية الزراعية، ولم تكن المجتمعات القروية الزراعية في فلسطين خلال هذا العصر متجانسة، إذ أثر في كل منها عوامل بيئية ومقومات اقتصادية متنوعة. فلقد عثر على مواقع ترجع إلى هذا العصر في مناطق الساحل الفلسطيني والنقب والمثلث وغور الأردن والمناطق الواقعة إلى الغرب من البحر الميت وغيرها، ولقد أثر هذا التنوع البيئي في طبيعة حياة الناس الذين سكنوا هذه المناطق، إذ أعيدت سكنى مواقع العصر الحجري الحديث أو ربما بقوا فيها وهي في الأغلب ذات نمط زراعي، بينما نجد المواقع الجنوبية موجودة في مناطق شبه جافة قريبة من الصحراء كما هو الحال في منطقة النقب، وعلى الرغم من هذا التباين في طبيعة المواقع ومكتشفاتها فإنها -وبلا أدنى شك- كانت تشكل وحدة حضارية واحدة يكمل بعضها بعضاً، ولربما أدى هذا التباين إلى اختصاص سكان منطقة بصناعات معينة لها علاقة بتوافر المواد الخام في تلك المنطقة التي عاشوا فيها، فأصبحوا على معرفة بموادها الخام وكيفية استخراجها وبالتالي تصنيعها.

وإذا أردنا أن نعطي مثالاً جيداً على ما ذكر أعلاه فإننا نشير إلى مواقع بئر السبع (خربة البيطار وبئر الصفدي وتل أبو مطر)، التي انتظمت في إطار حضاري واحد، واعتمدت اقتصاد الزراعة والرعي وربما الاستغلال الجزئي للنحاس بالإضافة إلى التجارة مع المواقع المجاورة[١٢]. وأهم ما ميز القرى في منطقة النقب خلال الألف الرابع قبل الميلاد حفر مساكنهم في الصخر الجيري تحت سطح الأرض، ومجموعة التماثيل الآدمية الصغيرة المصنوعة من العاج التي عثر عليها في بئر الصفدي.

كما ويعتقد أن الإنسان مارس نوعاً من الطقوس الدينية، إذ عثر في موقع عين جدي في الضفة الغربية للبحر الميت على بقايا مبنى يعتقد أنه لمعبد. وكما أن الناس كانوا قد دفنوا موتاهم داخل توابيت أو جرار فخارية وحرقوا بعضها أحياناً وتمثلت هذه المادة بشكل واسع في منطقة الساحل الفلسطيني.

ومع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، شهدت منطقة الشرق الأدنى القديم، بما في ذلك فلسطين، تغيراً حاسماً في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية. ويعتقد بعض العلماء أن هذا مرجعه إلى وفود أقوام جديدة قضت على الحضارة السابقة، أما البعض الآخر فيعتقد أن التطور كان محلياً، وأن القرية اتسعت كما تطورت المفاهيم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى ما يعرف باسم «المدينة». أما الرأي الأخير وهو ما نعتقده فيرى أن التطور كان محلياً مع وجود تأثيرات دخلت إلى المنطقة عن طريق وافدين جدد. لكن أهم تطور حصل في حياة الناس هو التوصل لمعرفة الكتابة وبداية تدوين التاريخ وبها تبدأ الفترات التاريخية وتنتهي عصور ما قبل التاريخ، ويجزم العلماء بأن ساكني فلسطين خلال نهاية الألف الرابع وما بعده كانوا من الكنعانيين.

دويلات المدن "العصور البرونزية"

اختلف العاملون في الآثار الفلسطينية في تفسير بدايات ظهور دويلات المدن، وأطلقوا على المرحلة الانتقالية بين القرية والمدينة مصطلحات وتسميات مختلفة وذلك تبعاً لمفاهيم في تفسير المكتشفات الأثرية التي عثروا عليها. لكن من المتفق عليه ظهور أنواع من الفخار نسبت إلى جماعات بشرية اعتقد أنها دخلت إلى فلسطين من مناطق أخرى، فهناك النوع الرمادي المصقول الذي نسب إلى شمال ووسط فلسطين، والأحمر المصقول إلى جنوب فلسطين.

واستطاع الكنعانيون، سكان فلسطين خلال الألف الثالث قبل الميلاد معرفة خلط النحاس مع القصدير ليكونوا معدن البرونز ويستخدموه في صناعة أدواتهم اليومية. كذلك تم تأسيس عدد من المدن الكنعانية في مناطق متعددة من فلسطين، ربما أدت التجارة دوراً هاماً في تكوينها. وقد كونت بعض هذه المدن على امتداد العصور البرونزية أحلافاً بينها عندما كان يتهددها الخطر. ومن أهم هذه المدن تل المتسلم، والتل، وخربة الكرك، وأريحا، وبيسان، وتل الدوير وعرد، وتل القدح، وبلاطة، وتل الجزر، وغيرها الكثير، ومن الجدير ذكره أن معظم هذه المدن كانت محاطة بأسوار دفاعية منذ نشأتها خلال مراحل العصر البرونزي القديم (حوالي ٣٢٠٠-٢٠٠٠ق.م.). كما تم العثور على عدد من المعابد (مثل تل المتسلم) والقصور ومناطق سكنية مبنية (حسب مخطط مسبق)، وعدد من الهياكل العظمية في أريحا، وحقول للمدافن في جميع المواقع البرونزية القديمة، أهمها أريحا، وتل المتسلم، وتل الفارعة الشمالية[١٣].

وتتميز المرحلة الثانية من العصر البرونزي القديم (حوالي ٣٠٠٠-٢٧٠٠ ق.م.) بتأسيس العديد من المدن المسورة. وأصبحت المدن الرئيسة تمثل وحدات سياسية مستقلة. وتتميز هذه المرحلة باستخدام نوع من الفخار يسمى (فخار ابيدوس).

أما المرحلة الثالثة (حوالي ٢٧٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م.) فإنها لم تشهد تغيراً حاسماً في الإنتاج أو العمارة. وكثيراً ما استمرت السكنى في نفس المدن السابقة نفسها، وإن

حصلت بعض الإضافات على ملامحها المعمارية، وأكثر ما ميز هذه المرحلة فخار يعرف باسم «فخار خربة الكرك» نسبة إلى الموقع الذي تم التعرف فيه على هذا النوع لأول مرة، وهو يقع إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية. وإضافة لهذا النوع من الفخار فقد كان هناك الفخار الذي يمكن وصفه بأنه محلي، إذ كان فخار خربة الكرك قد وصل إلى فلسطين عن طريق قادمين جدد.

أما العمارة فقد تميزت بوجود المساكن المؤلفة من أكثر من غرفة، كما عثر على عدد من المعابد مثل معبد التل (عي) بالقرب من القدس وتل المتسلم (مجدو) في سهل مرج ابن عامر.

ويكتنف المرحلة الرابعة من العصر البرونزي القديم (حوالي ٢٢٠٠-٢٠٠٠ ق.م.) كثير من الغموض، مما جعل الدارسين يختلفون في تفسيرهم لطبيعتها ومميزاتها وحتى إرجاعها إلى فترة معينة. ويعتقد بعض العلماء أن المدن الكنعانية قد دمرت مع بداية هذه الفترة على يد أقوام جديدة دخلت إلى المنطقة تتصف بالبداوة وربما كانوا هم الآموريون.

وأن الشاهد الرئيس على هذه المرحلة مستمد من كثرة المدافن التي وجدت بأعداد كبيرة وقلة المواقع السكنية التي إن وجدت فإنها غالباً ما كانت أشبه بالمعسكرات أو القرى الزراعية الصغيرة والبسيطة. ويبدو أن هذه الجماعات أخذت في الاستقرار التدريجي لتؤسس فيما بعد عدداً من المدن المحصنة وتبدأ فترة جديدة يطلق عليها اسم العصر البرونزي المتوسط (حوالي ١٩٠٠ - ١٥٥٠ ق.م.).

ومع بداية العصر البرونزي الوسيط، عادت المدن الكنعانية تنشط وتنتشر من جديد في فلسطين وظهرت معها أنماط عمائرية وأنواع فخارية جديدة. وتتميز بعلاقات تجارية وسياسية واسعة مع مختلف بلدان الشرق الأدنى القديم، وبشكل خاص مصر وبقية بلاد الشام.و أخذنا نستمد معلوماتنا حول هذه الفترة بشكل خاص من المصادر التاريخية المصرية المكتوبة إضافة إلى ما عثر عليه من نصوص تاريخية في مواقع أخرى في بلاد الشام مثل تل المرديخ وتل الحريري ورأس شمرة في سوريا. وتمثل هذه المرحلة بداية التغلغل

السياسي والعسكري المصري في فلسطين وبخاصة زمن الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة. ويظهر التأثير المصري واضحاً على المكتشفات الأثرية في مواقع فلسطينية متعددة مثل تل العجول وأبو شوشة في جنوب فلسطين وتل المتسلم في شمالها. ومن المعروف أن الهكسوس قد حكموا مصر خلال هذه المرحلة. وتتميز صناعة الفخار في العصر البرونزي المتوسط لا سيما المراحل الأخيرة منه بأنها جاءت متطورة جديدة من حيث المادة والزخرفة وطريقة الصنع.

كما أن المدن وبخاصة في المرحلة الأخيرة من هذا العصر قد أصبحت محصنة بأنواع جديدة من التحصينات المكونة من جدار خلفه منزلق حاد مصنوع من الأتربة المرصوصة، بعده يأتي خندق ربما كان يملأ بالماء ليكون عائقاً أمام المهاجمين، وعثر على تحصينات مماثلة في مواقع متعددة من فلسطين أذكر منها: تل القدح وتل القاضي وتل المتسلم وتل تعنك وتل الفارعة الشمالية، وتل بلاطة، وتل بيت مرسم وتل العجول. كما تم العثور في كثير من المواقع الفلسطينية على قصور ومعابد، كالمعبد الذي عثر عليه في تل بلاطة. وتعتبر مدافن العصور البرونزية متميزة من حيث نوعية المرفقات الجنائزية التي توضع مع المتوفى وأفضل مثال على هذا ما عثر عليه في تل عين السلطان بمدينة أريحا(١٤).

ولقد أجمع الدارسون على أن هزيمة الهكسوس على يد الفرعون المصري أحمس الثالث وسقوط عاصمتهم أفاريس بيده تمثل نهاية العصور البرونزية المتوسطة وبداية الحديثة. لكن يبدو لنا أن تأثير هذا الحدث على فلسطين لم يكن كبيراً إذ إن المدن التي عرفناها هنا بقيت هي المدن الرئيسة خلال المرحلة اللاحقة وإن كانت قد تعرضت لنوع من الدمار أو الهجوم لبعض الوقت.

وتتصف المرحلة الأخيرة من العصور البرونزية (حوالي ١٥٥٠-١٢٠٠ ق.م.) بالسيطرة المصرية شبه التامة على معظم بلاد الشام. لكن يبدو من خلال الدراسات الأثرية التي أجريت في مختلف أنحاء فلسطين أن حالة الاضطراب ربما تكون قد أثرت في الأحوال في جنوب ووسط فلسطين، بينما شهدت المنطقة الشمالية انتعاشاً سريعاً بعد

سقوط دولة الهكسوس في مصر. وربما يكون للوضع السياسي في مصر علاقة بهذا الأمر، إذ إننا نعرف أن عدداً من الفراعنة المصريين في زمن الأسرة الثامنة عشرة (من أمثال تحتمس الثالث) قد جردوا حملات عسكرية متكررة على بلاد الشام وفلسطين كونها تشكل المعبر إلى مختلف أنحاء هذه المنطقة، لكن هذا الوضع لم يدم طويلاً، إذ عادت المدن الجنوبية الفلسطينية إلى الازدهار بعد ذلك.

وقد زودتنا المصادر التاريخية المصرية خلال الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة عن مجمل الأحوال في فلسطين خلال هذه الفترة[١٥]. وقد قسم العلماء المرحلة الأخيرة من العصر البرونزي إلى عدة مراحل هي:

١- العصر البرونزي المتأخر الأول (حوالي ١٥٥٠ - ١٤٠٠ ق.م.)

٢- العصر البرونزي المتأخر الثاني أ (حوالي ١٤٠٠ - ١٣٠٠ ق.م.)

٣- العصر البرونزي المتأخر الثاني بـ (حوالي ١٣٠٠ - ١٢٠٠ ق.م.)

وإذا كان العصر البرونزي المتأخر الأول قد تميز ببداية تأسيس الإمبراطورية الفرعونية زمن الأسرة الثامنة عشرة والحملات العسكرية المصرية على بلاد الشام، فإن المرحلة «أ» من العصر البرونزي المتأخر الثاني قد تميزت برسائل تل العمارنة التي تعود للنصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والتي تعكس لنا الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في منطقة بلاد الشام، خاصة إذا ما علمنا أنها رسائل موجهة من ملوك دويلات المدن في بلاد الشام الذين ظلوا على ولاء لمصر وللحكم المصري على الرغم من عدم اهتمام الفرعون بهذا الأمر. لكن الوضع اختلف مع اعتلاء سيتي الأول العرش (حوالي ١٣٠٣ - ١٢٩٠ ق.م.) حيث قاد في السنة الأولى من حكمه حملته الأولى على بلاد الشام التي زودتنا بتفصيلات عنها مسلته التي عثر عليها في بيسان. وقد زودتنا المواقع الأثرية الفلسطينية العائدة للحقب البرونزية المتأخرة ببقايا حضارية تدل على التقدم والتطور الذي وصل إليه الكنعانيون، سكان فلسطين في ذلك الوقت. فقد عثر على بيوت سكنية في مواقع أبو حوام وتل الخويلفة وتل المتسلم كما عثر على مبان

فخمة تشبه القصور (في تل المتسلم وتل العجول ودير البلح وتل الفارعة الجنوبية وتل الشريعة)[١٦].

وأما بخصوص المباني الدينية (المعابد) فقد كشفت الحفريات عن عدد منها، جاء بعضها مكوناً من غرفة مستطيلة أمامها ساحة على جانبها غرفتان صغيرتان كما هو الحال في تل المتسلم وتل البلاطة ، أو من مبنى مستطيل الشكل ذي ساحة أمامه مثل معابد تل القدح(حاصور) وتل أبو حوام. وقد عثر في موقع تل القدح على عدد من المسلات بعضها منحوت ويعتقد أن لها صفة عقائدية. أما في بيسان وتل الهدروسي وتل المتسلم فقد كشف النقاب أيضاً عن معابد مكونة من مجموعة من الغرف. وعلى أية حال فإن مجموعة المعابد والتماثيل والدمى التي تمثل آلهة، والتي كشف النقاب عنها في عدد من المواقع الفلسطينية قد أظهرت الفكر العقائدي لدى سكان فلسطين خلال العصور البرونزية المتأخرة.

كذلك أظهرت المخلفات الأثرية المكتشفة في فلسطين والمؤرخة للعصر البرونزي المتأخر الصلات الدولية لهذه المنطقة، فقد عثر في فلسطين على عدد من الأواني الفخارية المايسينية والقبرصية والمصرية. وهذا يظهر أنه كان هناك تبادل تجاري مع مناطق أبعد من بلاد الشام. كما عثر على عدد من القطع العاجية في تل المتسلم وتل الدوير وتل الفارعة الجنوبية جاء محفوراً عليها زخارف هندسية وحيوانية وآدمية.

إن هذا الازدهار الحضاري في بلاد كنعان قد تأثر - كغيره من بلدان الشرق الأدنى القديم، وفي حوالي ١٢٠٠ ق.م. - بعدة عوامل نذكر منها:

- سقوط مايسينيا، مما أفقد فلسطين شريكاً تجارياً هاماً.
- هجوم الليبيين وشعوب البحر على مصر.
- هجوم شعوب البحر على فلسطين (الساحل الجنوبي).
- يعتقد أن خروج بني إسرائيل من مصر قد حدث خلال هذا الوقت.
- سقوط الإمبراطورية الحثية في بلاد الأناضول.

أدت هذه العوامل مجتمعة إلى رسم خريطة سياسية جديدة لبلاد الشام، وحيث إن الإنسان توصل إلى معرفة استخدام الحديد في تصنيع أدواته وأسلحته، فقد أطلق على الفترة اللاحقة اسم العصور الحديدية. وقد تم خلال هذه المرحلة (حوالي ١٢٠٠ - ٥٨٦ ق.م.) تأسيس عدد من الممالك في منطقة جنوب بلاد الشام.

العصر الحديدي حوالي (١٢٠٠ - ٥٨٦ ق.م.)

كما هو ظاهر من الاسم فإنه وفي حوالي ١٢٠٠ ق.م. بدأ الإنسان الكنعاني يستخدم أدوات وأواني مصنوعة من الحديد عثر على بعض منها في المواقع الفلسطينية. وقد جرت العادة أن نقسم هذه العصور الحديدية إلى ثلاثة أقسام اعتماداً على دراسات وتفسيرات قدمها علماء اللاهوت للتوراة أو الآثاريون المعنيون بالآثار الفلسطينية. وقد رأى هؤلاء أن عام ٥٨٦ ق.م. يمثل نهاية هذه الفترة، إذ تمثل هذه السنة سقوط القدس على يد نبوخذ نصر البابلي وانتهاء حكم أسرة الملك داوود.

إن المصادر التاريخية والأثرية من العصور الحديدية تشير إلى أن فلسطين كانت مسرحاً لعدد من الصراعات الداخلية وما زالت مطمعاً للقوى الكبرى في مصر وبلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى. لكن دخول شعوب البحر مثل قبائل الشردان والزكالا والشكلس والدانينو والبلست على المسرح السياسي أثر كثيراً في كتابة تاريخ المنطقة، ويعتقد أن هذه الشعوب لم تشكل قوى متجانسة أو مجموعات مترابطة. ولكنها شكلت خطراً مباشراً على مصر الفرعونية، وسواحل شرق المتوسط، وحتى الولايات والممالك التابعة للإمبراطورية الحثية في الأناضول. ونتيجة لهذه لصراعات تكونت في بلاد الشام مراكز قوى جديدة مكونة من عناصر كنعانية وآرامية محلية وأخرى خارجية منها شعوب البحر. ورغم هذا المزج السياسي إلا أنه كانت هناك استمرارية حضارية للسكان المحليين من نهاية العصور البرونزية. لكن هذا الرأى لا يروق لكثير من الباحثين لا سيما التوراتيين الذين يرون من ظهور عناصر جديدة (مثل الإسرائيليين) وهم الذين سيطروا

على الساحة السياسية في فلسطين. لكن هذا الأمر بعيد عن الصحة وذلك اعتماداً على دراسة الظواهر الأثرية ولاسيما الفخار. وعلى الرغم مما سبق، إلا أننا لا ننكر دخول عناصر بشرية جديدة إلى فلسطين من أمثال العبرانيين وشعوب البحر، ولكن الغالبية العظمى لسكان فلسطين كانت في هذه الفترةمن أصل كنعاني، وأن ما يسمى بشعب البلست (Plst) حسب المصادر المصرية قد استقروا في منطقة الساحل الفلسطيني، وأسسوا مجموعة من المدن مثل غزة وعسقلان وأسدود وتل الصافي[١٧].

وينسب إلى الفلسطينيين أنواع من الفخار عليها رسومات بأشكال هندسية وطيور وأشكال حلزونية، وتوابيت فخارية على شكل إنسان عثر عليها في عدة مواقع في فلسطين والأردن ومصر. ولكن هذا لا يعني أن هذه اللقى الأثرية غير محلية الصنعة، بل على العكس فعجينة الفخار تبدو على أنها محلية، وتُعد أشكال الأواني الفخارية استمراراً لأشكال أواني العصور السابقة. كما أن التأثيرات الكنعانية تبدو واضحة على مخلفات الفلستينيين من خلال العمارة والحياة الدينية.

وبالإضافة إلى الكنعانيين -السكان الأصليين لفلسطين- والفلستينيين دخلت إلى فلسطين قبائل العبرانيين في مطلع العصر الحديدي. ويبدو أن صراعاً احتدم ما بين السكان الأصليين وهذه القبائل نتج عنه تأسيس دويلة إسرائيل في حوالي ١٠٣٠ ق.م. ولا نستطيع الجزم فيما إذا كانت هذه المملكة قد نشأت من داخل الأرض الفلسطينية أم أن العبرانيين الذين يشار إليهم في العهد القديم هم الذين أسسوها، وذلك لعدم توافر وثائق أصلية «غير التوراة» تشير إلى هذا[١٨]. لكن التوراة تذكر أن القبائل العبرية الاثنتي عشرة قد اجتمعت وعقدت تحالفاً فيما بينها تحول فيما بعد إلى مملكة بقيادة شاؤول. ومن بعد شاؤول حكم داوود والذي تذكر التوراة بأن أول عمل عسكري قام به هو مهاجمة القدس اليبوسية[١٩]. ويبدو أن الدولة الإسرائيلية في عهد داوود قد بلغت شأناً كبيراً، إذ وصل نفوذها إلى بعض المدن والممالك التي كانت موجودة في بلاد الشام. وجاء من بعد داوود ابنه سليمان الذي تنسب إليه المشاريع الصناعية والعمرانية الكبيرة. لكن عهده

اتصف بالبذخ والإنفاق الباهظ مما أرهق الدولة وأدى في نهاية الأمر إلى انقسامها إلى دولتين. ويبدو أن مملكة داوود وسليمان التي استمرت لجيلين فقط هي الفترة الوحيدة التي كون الإسرائيليون خلالها قوة عسكرية وسياسية يحسب لها حساب في العصور القديمة.

وكما ذكرنا أعلاه، وبعد موت سليمان، انقسمت المملكة الإسرائيلية إلى قسمين شمال (إسرائيل) وجنوب (يهوذا) وأخذتا تتصارعان فيما بينهما. وفي هذه الأثناء (حوالي ٩٢٣ ق.م.) نظم الفرعون المصري شيشنق حملة عسكرية على فلسطين وأخضعها للجزية. وعلى أية حال، فقد امتازت هاتان المملكتان بصراعهما ليس فقط فيما بينهما وإنما أيضاً مع الممالك الآرامية في الشمال والعمونيين والمؤابيين والآدوميين في الشرق. كذلك وبعد ظهور الدولة الآشورية على الساحة السياسية خلال العصور الحديدية نجد أن ملوكهم جردوا عدداً من الحملات على فلسطين كغيرها من بلاد الشام كما تذكر المصادر الآشورية التاريخية. وقد وصلت مملكة إسرائيل إلى نهايتها عندما سقطت السامرة عاصمتها على يد سرجون الثاني الآشوري الذي قام بسبي عدد كبير من الإسرائيليين إلى ميديا.

أما مملكة يهوذا فقد استمرت بدفع الجزية للآشوريين حتى أوائل حكم ملكها حزقيا (٧٢١-٦٩٣ ق.م.) عندما تحالف مع عدد من المدن الفلسطينية والممالك المجاورة مثل آدوم ومؤاب للتخلص من الحكم الآشوري. لكن الملك الآشوري، سنحاريب جرد حملة عسكرية عليه فأخضع جميع فلسطين للحكم الآشوري، وبقي الحال على ما هو عليه حتى سقوط نينوى عاصمة الآشوريين بيد الدولة الكلدانية أو البابلية الجديدة. ومن المعروف أن الملك الكلداني قد حاصر القدس ودخلها جيشه عام ٥٩٧ ق.م. وعيّن «صدقيا» ملكاً على يهوذا (٥٩٧ - ٥٨٦ ق.م.) لكن هذا الأخير حاول التحالف مع المصريين ضد الكلدانيين مما أجبر نبوخذ نصر على إرسال جيش قوي دخل القدس وهدمها وسبى سكانها وأصبحت سائر بلاد الشام تحت الحكم الكلداني).

فترة الحكم البابلي / الفارسي لفلسطين

لم يدم حكم الدولة البابلية لفلسطين طويلاً، إذ إنه وبعد وفاة الملك الكلداني نبوخذ نصر في عام ٥٦٢ ق.م. سقطت هذه الدولة بيد الفرس عام ٥٣٩ ق.م. بعد تغلبهم على الملك نابونيدس في معركة فاصلة. وهكذا وقعت فلسطين كغيرها من بلاد الشام تحت وطأة الحكم الفارسي الذي استمر حتى عام٣٣٣عندما استطاع الإسكندر المكدوني التغلب عليهم في معركة ايسوس الشهيرة، وجعل الفرس بلاد الشام مقاطعتهم الخامسة من بين المقاطعات العشرين. وكان الملك قورش من أهم ملوك الفرس وعرف عنه احترامه للتقاليد والمشاعر الدينية للمناطق التي احتلها كافة. فأمر بإعادة اليهود إلى فلسطين.

وعلى الرغم من العثور على عدد من المكتشفات الأثرية في فلسطين وما تزودنا به المصادر التاريخية الكلاسيكية (مثل كتابات جوزيفوس وسترابو وهيرودتس)، إلا أن تاريخ فلسطين ينتابه الكثير من عدم الوضوح خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. لكن يبدو لنا واعتماداً على الظواهر الأثرية المكتشفة من هذه الفترة أن الأحوال الاقتصادية والعمرانية قد شابها نوع من التدهور، ويغلب على المواقع الأثرية المتكشفة طابع المجتمعات الزراعية. وقد قسمت فلسطين أيام الفرس إلى عدة مقاطعات هي الجليل والسامرة والقدس وآدوم وكنعان وفلسطين.وكانت اللغة الآرامية هي اللغة الشائعة في فلسطين كغيرها من بلدان بلاد الشام.

ومن المعروف أن الإسكندر المكدوني قد دخل إلى بلاد الشام بعد انتصاره على الفرس، وسقطت المدن الشامية الواحدة تلو الأخرى وسقطت غزة بيده في سنة ٢٣٣ ق.م. وتبدأ الفترة الهلنستية بدخول القوات المكدونية إلى هذه البلاد حيث امتزجت الحضارتان الشرقية والغربية.

العصر الهلنستي (٣٣٢ ق.م. - ٦٣ ق.م.)

انتصر الإسكندر المكدوني على الملك الفارسي داريوس الثالث في معركة إيسوس عام ٣٣٣ ق.م.، ومن هناك استمر في زحفه عبر الساحل الفنيقي الفلسطيني باتجاه مصر. ودخلت قواته إلى مدينة غزة عام ٣٣٢ ق.م. وجاء موته المفاجئ عام ٣٢٣ ق.م. سبباً في التنافس الذي حصل بين قادته من بعده. وبعد أخذ ورد بين هؤلاء القادة حصلت معركة فاصلة (هي معركة ابسوس) عام ٣٠١ ق.م. أدت إلى انقسام الإمبراطورية إلى دولتين. إذ تولى القائد سلوقس الأول حكم الأجزاء الآسيوية عدا جنوب بلاد الشام، بينما احتفظ بطليموس الأول بولاية مصر. وقد دارت بين السلوقيين والدطالمة طوال القرن الثالث قبل الميلاد معارك من أجل السيطرة على جنوب بلاد الشام(٢٠). وبعد انتصار أنتيوخس الثالث على بطليموس الخامس في معركة بانياس بالقرب من منابع نهر الأردن عام ١٨٩ ق.م. ، أصبحت منطقة جنوب بلاد الشام جزءاً من المملكة السلوقية، ولكن عام ١٩٠ ق.م. انهزم انتيوخس الثالث في معركة مغنيزيا (Magnesia) من الرومان وعقد صلح يعرف باسم «أفاميه» سنة ١٨٨ ق.م. وبعد وفاة هذا الملك عانت المملكة السلوقية من عدة مشكلات منها: الصراع بين القادة ومن ثم الحروب ضد الفرثيين في إيران، وتجدد موقف البطالمة العدائي. كذلك وفي عام ١٧٥ ق.م. قامت الثورة المكابية في فلسطين وانتهت بقيام الأسرة الحشمونية فيها حتى قضى عليها بومبي عام ٦٣ ق.م. عندما احتل مدينة القدس. وأصبحت فلسطين بعدها جزءاً من الدولة الرومانية.

العصر الروماني (٦٥ ق.م. - ٣٢٤م)

في عام ٦٥ ق.م. دخلت الجيوش الرومانية كليكيا في طريقها إلى سوريا وفلسطين. وكان هم القائد الروماني بومبي هو القضاء على الدولة السلوقية وتنظيم منطقة غرب آسيا على الطريقة الرومانية. أما في فلسطين فقد تعرضت الأسرة الحشمونية للانحطاط

نتيجة الصراع على الزعامة الدينية في بيت المقدس بين هيركانوس وأخيه ارستوبولس. إلا أن القائد الروماني بومبي دخل بيت المقدس بعد حصار وقتال شديد ين عام ٦٣ ق.م. منهياً بذلك حكم الأسرة الحشموني. ووضع بعد ذلك تنظيماً إدارياً جديداً وتم تعيين هيركانوس الثاني (٦٣-٤٠ ق.م.) قائداً تابعاً له بينما أخذ أرستوبولس أسيراً إلى روما. وأصبحت سوريا وفلسطين تكونان مقاطعة رومانية. بينما أعيدت للمدن الهلنستية مكانتها واستقلالها وكونت ما يعرف باسم حلف المدن العشر (الديكابوليس). وفي سنة ٥٧ ق.م. تولى غابينوس ولاية سوريا فأعاد التنظيم الإداري لمنطقة بيت المقدس والجماعة الدينية فيها.

ومن المعروف أن الرومان قد لقبوا هيردوس من ٣٧ ق.م. - ٤ ق.م. ملكاً على فلسطين بأكملها عدا المدن الهلنستية. فقد كان هذا يرتبط مباشرة مع الإمبراطور الروماني وذلك بتقديم الجنود عندما يطلب منه ذلك والدفاع عن حدود الإمبراطورية وتقديم الهدايا.

وقد بنى هيرودس ميناء قيسارية ومدينة سبسطية إضافة إلى قلاع وحصون ومدن أخرى، وكان يحيط نفسه بمجلس استشاري يدعوه للمشاورة عندما تقتضي الحاجة ذلك. وكان هيرودس آدومي الأصل، والآدوميون عرب. وبعد وفاته توزعت مملكته على أبنائه الثلاثة، لكن الأمر لم يدم إذ إن فلسطين أصبحت بكاملها ولاية رومانية بعد عام ٤٤م بعد موت «أغريبا» حفيد هيرودس.

وفي سنة ٦٦م اندلعت في فلسطين حركة عصيان ضد الحكم الروماني قضى عليها تيطس عام ٧٠م. وبعد القضاء عليها ظلت الفرقة الرومانية العاشرة من الجيش الروماني في بيت المقدس التي أصبحت لا تعدو عن كونها معسكراً لهذه الفرقة نتيجة للتدمير الذي أحاقها. وعندما تولى الإمبراطور الروماني هدريان الحكم أقام مدينة جديدة مكان بيت المقدس القديمة وأراد أن يكون ضمن مخططها هيكل روماني وجميع المؤسسات الرومانية العمرانية وأسماها «أيليا كابيتولينا» وكان هذا عام ١٣٠م. الأمر الذي أدى إلى ثورة (من

١٣٢ إلى ١٣٥م) أطلق عليها اسم ثورة «باركوخبا» نسبة إلى قائدها. وكانت نتيجتها أن قضى الرومان نهائياً على آخر وجود لليهود في فلسطين بعد سقوط قلعة مسعدة جنوب غرب البحر الميت، وأعيد بناء «أيليا كابتولينا». وتُعد الفترة الواقعة خلال الأعوام ١٣٥ – ٣٢٤م بمثابة فترة هدوء وسلام وطمأنينة في جميع فلسطين. وقد نشطت فيها أعمال البناء وازدهرت المدن بمعابدها ومسارحها وشوارعها وساحات سباق الخيول وبناء الجسور فوق الأنهار والأودية من أجل بناء الطرق التي تربط بين المدن.

العصر البيزنطي

تبدأ الفترة البيزنطية باعتراف الملك قسطنطين الأكبر بالديانة المسيحية ديناً رسمياً للدولة الرومانية وكان ذلك عام ٣٢٤م. وبنى عاصمته الجديدة القسطنطينية – فوق قرية تقع على مضيق البسفور تعرف باسم بيزنطة، وقد قامت والدته هيلانة بزيارة القدس وأمرت ببناء كنيسة فيها، وكنيسة القيامة المهد في بيت لحم وكنيسة البشارة في الناصرة.

وبعد وفاة قسطنطين وحتى عام ٥٢٧م تولى حكم الإمبراطورية سبعة عشر إمبراطوراً، بينهم أربعة، كانوا مغتصبين للعرش. أما بالنسبة لفلسطين فإن أهم ما تم في هذه الفترة هو العناية بتطوير الإدارة، وقد قسمت فلسطين بعد عام ٤٠٠ إلى ثلاثة أقسام إدارية.

ومن الأباطرة الذين اهتموا بشؤون البناء، الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧–٥٦٥م). فقد ازداد بناء الكنائس والمباني العامة في عهده. وفي عام ٩٢٥م قام السامريون بثورة على الإمبراطور جوستنيان وهدموا بعض الكنائس التي ترجع إلى عهد الإمبراطور قسطنطين.

وكانت الحروب بين البيزنطيين والساسانيين تهدأ تارة وتشتد تارة أخرى، وتم عقد عدد من المعاهدات والاتفاقيات بين الإمبراطوريتين، وفي السنوات من (٦١٠–٦٢٢م) قام الفرس بعدد من الهجمات على الامبراطورية البيزنطية فنهبوا أنطاكية ودمشق

واستطاعوا -بمساعدة من اليهود- احتلال بيت المقدس وإشعال النار في عدد من الكنائس. لكن الإمبراطور هرقل قام بعدة حملات عسكرية على الساسانيين انتصر فيها عليهم، حتى إنه وصل إلى عاصمتهم المدائن وحاصرها وخلع ملكها ومن ثم عقد الصلح معهم. لكن الأمر لم يدم طويلاً لهرقل، إذ إنه لم يستطع الثبات أمام جيوش المسلمين الذين قضوا على الدولة الساسانية، وانتزعوا بلاد الشام ومصر من أيدي البيزنطيين وذلك بعد انتصارهم في معركة اليرموك الحاسمة عام ٦٣٦م.

الهوامش

1. Weippert. H. Palaestina in Vorhellenistischer Zeit. Munchen: c.h. Becksche Verlagsbuchhandlung 1988.
2. Albright. W F. The Archaeology of Palestine. Baltimore 1970.
3. Kenyon. K. The Archaeology of the Holy Land 4th. ed. 1979.

٤. أبو طالب، محمود، آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة (أضواء جديدة) ، عمان : وزارة الثقافة والشباب، ١٩٧٧ –١٩٧٨.

5. Franken H. The Other Side of Jordan – Annual of the Department of Antiquities of Jordan 15 (1970.
6. Bar- Yosef. O. prehistory of the levant 113
7. Turville -Peter. F. Excavations in the Mugharet el-kebara. The Journal of the Royal Anthropological Institute 62: (1932): 271-276.
8. Garrod. D.A.E and Bate. D.M.A. The Stone Age of Mount Carmel. Oxford.
9. Neuville. R. (ed). Le Paleolithique el Ic Mesolithique du desert de Judee. Archives de I'institute de Paleonotolofic Humanaine 24- Paris 1951.

١٠. الابيفيلية والآشولية: أسماء أطلقت على أنواع من الأدوات الصوانية وأطلقت عليها هذه التسمية نسبة إلى موقعي Saint-Acheulle &-Abbeville في فرنسا.

11. Clark, G., Mesolithic Prelude, the Palaeolithic- Neolithic Transition in Old World Prehistiory. Edinburth: university Press.
12. Perrot, J. Le gisement natoufien de Mallaha (Eynan), Israel. L'Anthropologie 70 (1966) . 437-484.
13. Perrot, J., Syria -Palestine, I, from the Origins to the Bronze Age: 156-158 Genva: Nagel Publishers. 1979.
14. Kenyon, K.;' Archaeology in the Holly Land, 4th. ed. London. 1979.
15. Kenyon, K.' Jericho II-
16. Heck, W; Die Beziehungen Agyptens und Vorderasisens Zur Agais bis ins7. Jahrhundert v. Chr. Ertage der Forschung 120. Darmstadt.
17. Weippert, Palastina in Vorhellenistischer Zeit, 270-281.

١٨. طه، حمدان، تاريخ الفلسطينيين وحضارتهم في العصر الحديدي الأول (١٢٠٠ –١٠٠٠ق.م.) رسالة ماجستير قدمت لقسم الآثار في الجامعة الأردنية، ١٩٨٣.

١٩. إبراهيم، معاوية، فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرابع ق.م. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ١١٧

20. Abu Taleb, M., Jerusalem, the jebusites and David. Dirasat, Vol, Vol. XV:7 (1988). 47-70

٢١. زيادة ، نقولا، فلسطين من الإسكندر إلى الفتح الإسلامي. الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٩٠، ص١٤٤-١٤٥.

الفصل الثاني: فلسطين عبر التاريخ

القسم الثاني: تاريخ فلسطين الإسلامي*

مقدمة

يبدأ تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي بالفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام وينتهي بدخول قوات الجنرال اللنبي للقدس. وبين معركة أجنادين عام ١٣هـ/ ٦٣٤م واحتلال القوات البريطانية للقدس ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م حوالي ثلاثة عشر قرناً من الزمان شهدت خلالها فلسطين أحداثاً كبيرة ومظاهر حضارية مختلفة ما تزال تعد خير دليل على الهوية العربية - الإسلامية لها.

ولعل من النتائج المهمة لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم بداية طاعة العرب لسلطة مركزية واحدة وشعورهم بأهمية الوحدة في ظل الإسلام، وبداية إدراكهم لفكرة «العروبة» باعتبارها نزعة فوق القبلية، وبعد أن تصدى الخليفة أبو بكر الصديق بنجاح للردة أتمت دولة المدينة عمل الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال سيطرتها على شبه الجزيرة العربية بأكملها، وغدا العرب الموحدون عقيدياً وسياسياً مهيئين لدور جديد في التاريخ.

إن العرب المسلمين لم يبقوا محصورين في دائرة شبه الجزيرة العربية، بل انتشروا في أقاليم الجوار، ثم امتدوا إلى مناطق أخرى في آسيا وأفريقيا وأوروبا عبر مسالك عديدة مما ساعد على بناء حضارة جديدة، تستند على مبادئ الإسلام وقيم العروبة، ولا تنغلق

* أ.د. فاروق عمر فوزي، رئيس قسم التاريخ في جامعة آل البيت/ الأردن، أستاذ التاريخ الإسلامي فيها.

على الحضارات الأخرى المجاورة أو البعيدة من ساسانية وبيزنطية ويونانية وهندية، فكانت أكبر عملية تمازج حضاري بين الشعوب.

ويعود انتشار العرب وامتدادهم إلى الأقاليم المحيطة بهم إلى أزمنة قديمة جداً قبل الإسلام[1]، واستمرت هذه الظاهرة بعد الإسلام، وكانت على شكل هجرات سلمية ذات طبيعة جماعية ولكنها تدريجية ومستمرة، وكانت كل هجرة تشكل قاعدة لانطلاق هجرات أخرى جديدة، أما النمط الثاني من الانتشار العربي فكان عن طريق الفتوحات الإسلامية التي ساعدت على استقرار العرب المسلمين من قبائل مختلفة في أقاليم البلاد المفتوحة ومدنها.

فلسطين في صدر الإسلام

إن الموجة الأولى والكبرى للفتوحات الإسلامية التي حدثت خلال العصر الراشدي أدت إلى سقوط الإمبراطورية الساسانية وضم أقاليمها، وكذلك ضم معظم الأقاليم الشرقية للإمبراطورية البيزنطية - وفيها فلسطين، إلى الدولة الإسلامية، وفي دراستنا لهذه الفتوحات لا بد أن نشير إلى العوامل المهمة التي ساعدت على نجاح العرب المسلمين، مع أننا لا يمكننا أن نجزم بأن واحداً من هذه العوامل كان أعظم أثراً من غيره، ولعل أول هذه العوامل هو أحوال العرب الجديدة بعد اعتناقهم الإسلام من توحدهم تحت سلطة مركزية واحدة، وما كان للإسلام – بصفته عقيدة - من أثر في دفع العرب المسلمين للفتوح، وتوجيه طاقاتهم بهدف توسيع رقعة الدين الجديد، فقد وضع الإسلام -من خلال الجهاد- غاية سامية للفتوح، فلم تعد مجرد غزوات لأغراض مادية بل فتوح لإعلاء كلمة الله تعالى، وهي غاية تخص المصلحة العامة بمعنى مصلحة المجموع لا مصلحة فرد معين.

أما ثاني هذه العوامل فهو الحالة السياسية السائدة في المشرق عند ظهور الإسلام حيث كانت الإمبراطوريتان الساسانية والبيزنطية تتقاسمان المشرق، ورغم النزاع بين الإمبراطوريتين إلا أنهما كانتا تشتركان في مظهر واحد هو الضعف العام اقتصادياً

واجتماعياً ودينياً، إضافة إلى أن الحروب المستمرة بينهما أرهقت الميزانية، وأوهنت الآلة العسكرية في كل منهما[٢].

وهناك عوامل أخرى أعانت العرب المسلمين على الانتصار في فترة قصيرة نسبياً منها: صفاتهم البشرية، وتعودهم شظف العيش، وتحمل المشاق، وسرعة الحركة في تشكيلات عسكرية صغيرة، وجعلتهم أقدر على مجابهة الجيوش المنظمة ذات التجهيزات الثقيلة. إن حرب العرب المسلمين كانت نوعاً من المباغتة لكل من الفرس والروم اللذين لم يكونوا يتوقعون أي خطر من جهة الصحراء، وأخيراً وليس آخراً تشير روايات تاريخية[٣] إلى عامل ازداد أثره بمرور الوقت، ألا وهو نمو الوعي العربي بين القبائل في أطراف بلاد الشام والعراق، مما دعاها للتحول عن مواقفها السابقة، وتأييد الدولة العربية الإسلامية، فمنذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي السنة التاسعة للهجرة/ ٦٣٠م وفدت وفود من قبائل بلي وبهراء وغسان وكلب وطي وجذام وكلاب وغيرهم إلى المدينة المنورة، وفي الطبري رواية تشير إلى أن عرب الأطراف من نصارى وغيرهم ألقوا بثقلهم مع العرب المسلمين قائلين «نقاتل مع قومنا»[٤]، وحينما دخل خالد بن الوليد بلاد الشام «تسامح الأعراب الذين كانوا في مملكة الروم بخالد ففزعوا له»[٥] وحينما خير الخليفة عمر بن الخطاب بعض المقاتلة العرب في الجبهة التي يريدون التوجه إليها قالوا: «الشام، أسلافنا أسلافنا»[٦] مما يشير إلى إدراكهم أواصر القربى بينهم وبين العرب الذين استوطنوا تلك الديار قبل الإسلام ما زالوا هناك عند الفتح.

إن مصادرنا التاريخية لا تتفق على تصور واضح للعمليات العسكرية وتتابعها الزمني وما حدث بعدها من انتشار العرب المسلمين واستقرارهم في الأقاليم المفتوحة، ولكن الباحث من خلال المقارنة بين الروايات، يمكن أن يصل إلى تصور أقرب ما يكون إلى الصحة. ويقدر تعلق الأمر بفتوح بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة بأن العرب المسلمين كانوا يفضلون جبهة الشام عامة وفلسطين خاصة؛ لأنهم أعرف بها من خلال كثرة القبائل العربية المستقرة فيها قبل الإسلام، ومن خلال الاتصال والسفر والتجارة

وعلاقات القربى بالقبائل العربية هناك. كما وأن الدولة الإسلامية ذاتها ومنذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، اهتمت بالجبهة الشمالية، وشجعت العرب في أكثر من مناسبة على الانسياح شمالاً، وقد قاد الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه عدة حملات إلى الشمال، وعقد معاهدات مع رؤساء المدن والقبائل، واستقبل وفوداً من أطراف بلاد الشام. وكانت حملة أسامة بن زيد آخر الحملات التي أعدها الرسول صلى الله عليه وسلم عام ١١ هجري/ ٦٣٢ ميلادي ونفذها الخليفة أبو بكر الصديق[٧].

إن حدود بلاد الشام الشرقية والجنوبية مكشوفة ومتصلة بالبادية العربية، ويحد بلاد الشام البحر الأبيض المتوسط من الغرب وسواحلها كثيرة الموانئ التجارية والصناعية ولكنها عرضة للهجمات البحرية، وتعرقل الجبال طرق المواصلات بين أجزاء بلاد الشام، وتفصل المدن الداخلية عن الساحل البحري، وقد أعاقت نسبياً تقدم القوات العربية الإسلامية إلى السواحل، كما أعاقت بعد ذلك الدفاع عن مدن السواحل ضد البيزنطيين، ومن ثم الفرنجة (الصليبيين) وكانت مدن بلاد الشام ومنها فلسطين قبل الإسلام مراكز تجارية لصناعة الأنسجة والأصباغ والزيت والزجاج والخمر والأسلحة، وكانت على علاقات تجارية جيدة مع الحجاز، وهذا ما جعل «الطبقة المتوسطة» وبخاصة فئة التجار والصناع وأهل الحرف نشطة وموسرة، وربما كان ذلك أحد العوامل المهمة التي تفسر عدم حدوث قلائل واضطرابات في بلاد الشام خلال القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي[٨].

وقد وجه الخليفة أبو بكر الصديق عام (١١هـ/ ٦٣٢م - ١٣هـ/ ٦٣٤م) بعد الانتهاء من حروب الردة أربعة جيوش إلى بلاد الشام سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م بلغ تعداد كل منها، بعد وصول الإمدادات، حوالي سبعة آلاف مقاتل، ثم كتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير من أطراف العراق الغربية إلى بلاد الشام، فوصل بعد أن كانت الجيوش العربية الإسلامية قد خاضت عدة معارك مع الروم، وتولى خالد بن الوليد قيادة القوات مجتمعة في معركة أجنادين عام ١٣هـ/ ٦٣٤م في فلسطين (موقع بني الرملة وأجنادين)

جنوب غرب القدس، محرزاً نصراً كبيراً في أول معركة مهمة مع الروم[٩]. وقد بدأت قيادة القوات البيزنطية تجمع قواتها من مختلف المناطق ترقباً لمعركة قادمة مع المسلمين.

وفي هذه الفترة تسلم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة ١٣ هـ/ ٦٣٤م - ٢٣هـ/ ٦٤٤م)، فعين أبا عبيدة عامر بن الجراح قائداً عاماً للجيوش الإسلامية لعلاقته الوثيقة بالخليفة، ولمرونته وحنكته في الإدارة، وقد تتبع الجيش الإسلامي القوات البيزنطية المتراجعة في فحل على الضفة الشرقية لنهر الأردن على مقربة من بيسان، حيث وقعت معركة أخرى خسر فيها الروم عدداً كبيراً من الجند. ثم تقدمت القوات الإسلامية باتجاه دمشق والتقت بالجيش البيزنطي في موقعة (مرج الصُّفَّر) قرب دمشق في أوائل عام ١٤هـ/ عام ٦٣٥م، وقد طوق المسلمون دمشق من جهاتها كافة حتى فتحوها عنوة في رجب عام ١٤هـ/ أيلول عام ٦٣٥م.

على أن القسم الأكبر من الجيش الإسلامي بدأ يتجمع بالجابية في هضبة الجولان ثم اتخذ مواضعه بمحاذاة (وادي اليرموك)[١٠] حيث وقعت معركة حامية في رجب عام ١٥هـ/ ٦٣٦م خسر فيها الروم خسارة فادحة، حيث بلغ عدد قتلاهم بالآلاف، وجاء انتصار المسلمين تأكيداً لتثبيت نفوذهم مما مكنهم من استكمال فتح بقية المدن السورية والفلسطينية، وعقد سلسلة من المعاهدات معها. ولم يبق للروم في فلسطين سوى بيت المقدس وقيسارية.

وكانت القدس، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وموضع مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعراجه من المدن المهمة التي استهدفها الفاتحون المسلمون، وكان القائد عمرو بن العاص قد فتح العديد من المدن الفلسطينية منذ عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد قام بفتح غزة، ونابلس، واللد، وعمواس، وبيت جبرين، ويافا ورفح، وحين قدمت عليه القوات الإسلامية بعد معركة اليرموك كان ما يزال يحاصر مدينة القدس التي رفض أهلها الاستسلام، إلا إذا عقد الصلح الخليفة بنفسه، وقد استجاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه للطلب وتوجه إلى فلسطين، وقابل الوفد في الجابية، وتم عقد الصلح ثم توجه بعد ذلك إلى القدس فزارها في ١٦هـ/ ٦٣٧م[١١].

وتبقى معركة اليرموك هي المعركة الفاصلة في تاريخ فلسطين خاصة وتاريخ بلاد الشام عامة، لأنها دمرت كيان الجيش البيزنطي تدميراً كاملاً، فلم يلق بعدها الجيش العربي الإسلامي مقاومة كبيرة من الروم وحلفائهم، رغم أن أهل بعض المدن تحصنوا داخل مدنهم وقاوموا الحصار، وبقدر تعلق الأمر بفلسطين فقد كان عبء العمليات العسكرية من نصيب القائد عمرو بن العاص الذي فتح جميع أرجاء جنوب فلسطين، وهذا ما أغراه بعد ذلك مباشرة بالتوجه إلى مصر ٢٠هـ/ ٦٤١م مع أربعة آلاف مقاتل من اليمانية. والواقع أن الإقليمين: سوريا ومصر يكمل بعضهما الآخر طبيعياً وعسكرياً، كما أن استمرار بقاء الروم في مصر قد يغريهم بالهجوم على بلاد الشام(١٢).

ولم تكن السنوات الأولى من فتح بلاد الشام سنوات سهلة وهذا ما يفسر مجيء الخلفية عمر بن الخطاب، فلم يكن وجوده في فلسطين لتوقيع معاهدات الصلح مع أهل القدس وبعض المدن الفلسطينية الأخرى حسب، بل للإشراف بنفسه على تنظيم الأجناد وحل المشاكل المالية والإدارية. لقد لاقى العرب المسلمون مصاعب إدارية جديدة، ومات منهم في طاعون عمواس ١٧هـ/ ٦٣٧م حوالي ١٨ ألفاً مما أضعف قوتهم العسكرية، ثم إن الروم كانوا ما يزالون يتمركزون في جبال طرطوس القريبة والأسطول البيزنطي تمركزاً قريباً من السواحل في البحر المتوسط، وقد أجبر هذا الوضع الخليفة عمر بن الخطاب أن يكون موجوداً في مسرح العمليات العسكرية لكي يشرف بنفسه على إعادة توزيع القوات الإسلامية، وإنشاء مراكز عسكرية جديدة، وتسوير بعض المدن أو ترميم أسوار غيرها، ولعل انشغال عرب بلاد الشام عموماً ومنها فلسطين بضمان أمنهم ضد الهجوم البيزنطي المحتمل يُعد عاملاً من العوامل التي تفسر عدم مساهمتهم الواضحة خلال القرن الأول الهجري بالحركات السياسية والفكرية مقارنة بالأقاليم الأخرى.

وقد بقيت المدن الفلسطينية وبخاصة الساحلية منها مثل قيسارية وعسقلان تقاوم الفتح الإسلامي بمساعدة الأسطول البيزنطي حتى تم فتحها على يد معاوية بن أبي سفيان ١٩هـ/ ٦٤٠و٢٣هـ/ ٦٤٣م على التوالي.

واتخذت الدولة العربية الإسلامية كلاً من الجابية في سوريا والرملة في فلسطين قاعدتين عسكريتين لاستقرار المقاتلة العرب المسلمين، وقد استقر مقاتلة آخرون، وكذلك القبائل العربية من الروادف التي جاءت بعد المعارك الأولى في المدن أو في القرى المحيطة بالمدن، فكانت طبرية وبيسان والقدس والرملة وقراها من الأماكن الأولى التي استقر فيها المقاتلة بموجب معاهدات الصلح، ويبدو أن أغلبية سكان فلسطين كانوا من القبائل اليمانية، واليمانية كما هو معروف سند الدولة الأموية. ومن هنا جاء اهتمام الأمويين بفلسطين وتوليتهم الولاة المخلصين والأكفاء لها وبخاصة من أبناء الأسر الأموية.

لقد كانت غسان من أشهر القبائل العربية التي نزلت أرض فلسطين، وتسميها بعض الروايات غسان فلسطين، كما استقرت قبيلة لخم في جنوب القدس والخليل ورفح، وقبيلة طي المعروفة بتاريخها الحافل في أحداث فلسطين في العصر الإسلامي. أما قبيلة جذام فقد استقرت في آيلة وسيناء ومناطق جنوب فلسطين، واستقرت قبيلة الأزد وديارها في أواسط فلسطين، ثم وفدت إلى فلسطين قبائل أخرى في أثناء الفتح وبعده منها همدان والسكاسك وكنانة ومذحج والأشعريين[١٣].

ويبدو أن عمر بن الخطاب قد قسم فلسطين إلى منطقتين عسكريتين، الأولى مركزها الرملة والثانية إيلياء، وباشرت الدولة بتوزيع الأرض الفلسطينية التي فتحت عنوة أو التي تركها أصحابها بين المقاتلة المسلمين.

وكان جند فلسطين خلال العصر الراشدي تابعاً لولاية بلاد الشام التي أصبح معاوية والياً عليها من ١٨هـ/ ٦٣٩م، وقد وقفت أجناد بلاد الشام كلها خلال الفتنة العصبية وراء معاوية بن أبي سفيان، وكانت سنده في حربه ضد الخليفة علي بن أبي طالب، ووقف أهل فلسطين من الأزد ولخم وخثعم وكنانة مع والي الشام في معركة صفين وظلوا إلى جانبه حتى تسلم الخلافة التي احتفل بإعلانها في القدس ٤١هـ/ ٦٦١م[١٤].

واتضحت خريطة بلاد الشام الإدارية في العصر الأموي حيث تبلورت أجناد الشام الخمسة وهي جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن وجند فلسطين، وجند قنسرين، وقد أعيد ترتيب المدن الفلسطينية فكانت كل من إيلياء (بيت المقدس) وعمواس ونابلس وبيت جبرين وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة من المدن الكبيرة في جند فلسطين الذي جعلت مركزه مدينة اللد، كما اتخذ العديد من خلفاء بني أمية بعض المدن الفلسطينية أماكن للراحة والاستجمام، وما تزال آثار مدنهم وقصورهم ماثلة حتى الآن[١٥].

لقد انشغل المسلمون بالفتوحات خلال عهد معاوية بن أبي سفيان الطويل (٤١هـ/ ٦٦٠م –٦٠هـ/ ٦٨٠م) ولكن الاضطرابات ما لبثت أن استفحلت بعد موته، ووقعت الفتنة الثانية بعد موت معاوية الثاني حيث دانت معظم أجناد الشام – ما عدا جندي الأردن وفلسطين اللذين سيطر عليهما حسان بن مالك الكلبي- بالولاء لعبد الله ابن الزبير الذي ثار على الأمويين، ولكن جند فلسطين ما لبث أن خلع البيعة للأمويين وثار بقيادة ناتل بن ميس الجذامي معلناً ولاءه لابن الزبير، ولكن مروان بن الحكم، بعد أن استقر له أمر الخلافة، استطاع أن يعيد جند فلسطين إلى الطاعة، كما نجح ابنه عبد الملك بن مروان في قتل ناتل الجذامي في معركة أجنادين الثانية، وبذلك زال الخطر الداخلي عن فلسطين، ويذكر للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بناؤه قبة الصخرة عام ٧٢هـ/ ٦٩١م فوق صخرة المعراج، وكان يشرف على إنشائها رجاء بن حيوة من بيسان ويزيد بن سلام من القدس، وكان هدفه من بناء القبة الحفاظ على المكان الذي يعظمه المسلمون في كل مكان، كما بنى عبد الملك بن مروان المسجد الأقصى بالقدس في السنة نفسها في موضع مسجد الخليفة عمر بن الخطاب، ثم أكمل بناءه ابنه الوليد بن عبد الملك ٨٦هـ/ ٧٠٥م ويعزى إلى الأمويين كذلك بناء الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل الذي يعد رابع مسجد من مساجد الإسلام، وللأمويين مآثر عمرانية كثيرة في فلسطين نخص منها بالذكر قصورهم الممتدة على أطراف البادية وحتى الغور، وقد بنى سليمان ابن عبد الملك مدينة الرملة لتكون عاصمة لجند فلسطين بدل اللد[١٦].

أما الخطر الخارجي المتمثل بهجمات الروم فكان ما يزال مستمراً في العصر الأموي، وبخاصة على مدن الساحل الفلسطيني حيث هوجمت عسقلان وقيسارية وعكا، إلا أن عبد الملك بن مروان ما لبث أن أعاد تحصينها وأسكنها المرابطة من العرب لتعزيز دفاعاتها، وليس في مصادرنا التاريخية ما يشير إلى أحداث كبيرة عكرت الأمن والاستقرار في فلسطين فيما تبقى من العصر الأموي حتى مجيء مروان بن محمد إلى الخلافة في بلاد الشام ١٢٧هـ/ ٧٤٤م حيث كان أهل فلسطين قد ثاروا بزعامة سعيد وضبعان بن روح بن زنباع الجذامي على عامل الوليد الثاني بن يزيد وولوا عليهم أميراً من آل سليمان بن عبد الملك الذي يكنون لهم الولاء والاحترام.

ثم خير مروان بن محمد أهل الاجناد ليختاروا ولاتهم فاختار أهل فلسطين ثابت ابن نعيم الجذامي، على أن هذا الأخير ما لبث أن تمرد على الخليفة الأموي الذي أمر أبا الورد مجزأة بن الكوثر لقمع حركة ثابت الجذامي، فانهزم ثابت إلى فلسطين، فتعقبه أبو الورد حتى هزمه وأسره وأعلنت فلسطين ولاءها لمروان الذي ولى عليها الرماحس بن عبد العزيز الكناني.

ولم يدم عهد مروان بن محمد طويلاً حيث واجه قوات الدعوة العباسية ١٣٢هـ/ ٧٥٠م في معركة الزاب الكبير قرب الموصل، وخسر المعركة ثم انسحب نحو الموصل وحران ثم دمشق التي لم يتمكن من البقاء فيها لانقسام أهلها فاتجه نحو فلسطين ثم ارتحل نحو مصر حيث قتل هناك وبهذا انتهت دولة الأمويين.

فلسطين في العصر العباسي

معروف أن الدعوة العباسية كانت قد بدأت مع بدايات القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد في بلدة الحميمة الواقعة آنذاك بأرض فلسطين، حيث كان يقطن علي بن عبد الله بن العباس، وقد كان لمحمد بن علي بن عبد الله العباس علاقات وثيقة مع أبي هشام عبد الله بن محمد بن الحنفية زعيم الحركة السرية الهاشمية الذي عرج إلى الحميمة

قبيل وفاته، وأعطى أسرار حركته إلى محمد بن علي العباسي، فغدا هذا الأخير زعيماً للحركة الهاشمية (العباسية).

ومنذ أن تسلم محمد العباسي زعامة الحركة السرية الهاشمية تحولت إلى عباسية صرفة حيث ركزت نشاطاتها وبخاصة في العراق والمشرق الإسلامي، وقد أعقبه إبراهيم (الإمام) بن محمد العباسي في زعامة الحركة عام ١٢٥هـ/ ٧٤٢م، وحقق نجاحات كبيرة في طرسان حيث سيطرت قوات الثورة العباسية على خراسان ثم على أقاليم المشرق، ثم العراق وبلاد الشام، حيث أعلنت الخلافة العباسية بالكوفة في العراق ١٣٢هـ/ ٧٥٠م[١٧]

عين الخليفة العباسي الأول أبو العباس عبد الله بن محمد عمَّه عبدَالله بن علي العباسي والياً على بلاد الشام، وكانت مهمته بعد انتصاره في معركة الزاب إخضاع بلاد الشام ومنها فلسطين للحكم العباسي. وبعد أن سيطر على دمشق اتجه إلى الأردن فقدم أهلها الطاعة، ثم سار إلى بيسان فمرج بني عامر حتى نزل على نهر إلى أبي فطرس بفلسطين، وحيث تشير روايات تاريخية[١٨] إلى قتله عدداً من أمراء البيت الأموي وإرساله عدداً آخر إلى العراق حيث الخليفة العباسي، فكانت نتيجة هذه السياسة القاسية أن وقعت عدة حركات ضد العباسيين في كور حوران والبثنية، مما اضطر الخليفة العباسي إلى تأنيبه وأمره ألا يقتل أحداً إلا بإذنه.

وكان صالح بن علي بن عبد الله العباسي أول أمير على فلسطين في العصر العباسي وكان تابعاً لأخيه عبد الله بن علي والي بلاد الشام. وفي عام ١٣٦هـ/ ٧٥٤م تحركت فلسطين مرة أخرى بقيادة شيخ من آل روح بن زنباع الجذامي الفلسطيني معلنةً البيعة لأمير من أمراء بني أمية المتبقين، وقد أمر الخليفة أبو جعفر المنصور واليه على مصر حينذاك بقمع الحركة فقام بذلك ودانت فلسطين بالطاعة.

ورغم أن مصادرنا التاريخية لا تزودنا بالكثير عن أحداث فلسطين خلال العصر العباسي الأول، إلا أن ما لدينا من روايات يكفي للتدليل على استمرار ولاء بلاد الشام ومنها فلسطين إلى الأمويين وتطلعها إلى إعادة المجد الأموي السابق من خلال حركات

واضطرابات عديدة بعضها رفعت شعار (السفياني المنتظر)، وهو المنقذ المرتقب لأهل الشام من حكم العباسيين!! أو من خلال حركات واضطرابات قبلية ذات طابع إقليمي لعل من أهمها ثورة ١٩٠هـ/ ٨٠٥م بزعامة أبي النداء في أيلة وأنحاء عديدة من فلسطين حيث انضم إليه الأعراب وقبيلة جذام، ولكن الثورة ما لبثت أن أخمدتها قوات قدمت من بغداد[١٩].

وتأتي زيارة الخليفة العباسي المأمون (١٩٨/ ٨١١م -٢١٨هـ/ ٨٣٣م) لبلاد الشام وبخاصة مدينتي دمشق وبيت المقدس ٢١٦هـ/ ٨٣١م لتؤكد قلق العباسيين من استمرار اضطراب الأوضاع في هذا الإقليم، ومحاولة التعرف عن قرب، على طبيعة المشاكل وحقيقتها فيه[٢٠]، ورغم ذلك فبعد أقل من عقد من الزمان تفجرت ثورة المبرقع اليماني ٢٢٧هـ/ ٨٤١م في عهد الخليفة المعتصم[٢١]، والمبرقع من أهل الغور دعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وردع الظلم، فاستجاب له خلق من الفلاحين وأهل الريف، كما استجاب له بعض الأشراف من زعماء القبائل اليمانية، وقد شاع بين الناس أنه أموي النسب وأنه المنقذ (السفياني المنتظر). ورغم جذور الثورة الاقتصادية والاجتماعية وتأييد أهل فلسطين لها، فإنها لم تستمر طويلاً حيث استطاعت قوات الخلافة كبتها خلال مدة قصيرة.

ويذكر للخلفاء العباسيين الأوائل اهتمامهم بفلسطين، ولاسيما مدينة القدس، فقد زارها الخليفة أبو جعفر المنصور والخليفة المأمون، وحين تعرض المسجد الأقصى للزلزال أيام المنصور ثم المهدي ثم المأمون أمروا بترميمه وتوسيعه.

وإذا كانت العلاقات الإسلامية -الفرنجية قد بلغت الذروة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فيما اصطلح عليه بالحروب «الصليبية» فإن جذورها التاريخية تعود إلى عصر العباسيين الأوائل، وفي عهد الخليفة هارون الرشيد ١٧٠هـ/ ٧٨٦م - ١٩٣هـ/ ٨٠٨م حيث تذكر بعض المصادر اللاتينية[٢٢] أن شارلمان إمبراطور الإمبراطورية الكارولنجية أرسل وفداً إلى هارون الرشيد، وأتبعه بوفد إلى

بطريرك القدس عام ١٨٣هـ/ ٧٩٩م ورد الرشيد بإرسال وفد بعد ثلاث سنوات، ثم تتابعت الوفود بين الجانبين تحمل الهدايا والتحف النادرة.

وبقدر تعلق الأمر بفلسطين – موضوع بحثنا – فقد أرسل شارلمان هبات إلى الأماكن المسيحية المقدسة، فرد عليه بطريرك القدس بإرسال مفاتيح القدس وكنيسة القيامة إلى شارلمان. وقد حمل بعض الباحثين الأوروبيين ومن تبعهم من المسلمين[٢٣] هذه الروايات أكثر مما تحتمل، وابتدعوا أسطورة فحواها أن شارلمان أصبح حامياً للأرض المقدسة في فلسطين وأميراً على القدس بموافقة الخليفة نفسه مقابل تعهد شارلمان بالوقوف ضد الأمويين في الأندلس وضد البيزنطيين.

صحيح أن المصلحة السياسية كانت تقتضي بتقارب الدولتين العباسية والكارولنجية (الفرنجية) لأن عدوهما المشترك واحد ألا وهو البيزنطيون والأمويون في الأندلس، ولكن مصادرنا التاريخية المعتمدة لا تذكر شيئاً عن ذلك، ثم إن الأراضي المقدسة في فلسطين ذات أهمية كبيرة للمسلمين، فكيف يحق للرشيد أن يعطي إمبراطور الفرنج امتيازات فيها؟ ولهذا فإن ما لدينا من معلومات تاريخية لا تسمح لنا بهذه الاستنتاجات المبالغ فيها، ولعلنا نستطيع القول إن هناك علاقات ودية وسفارات بين الطرفين أدى فيها بعض التجار دوراً بارزاً في نقل الهدايا والرسائل.

ولكن لماذا ابتدعت هذه الفرضية الاستشراقية حول حماية شارلمان لفلسطين وإعطائه لقب أمير القدس بموافقة الرشيد؟ إن هذه الفرضية تخدم الأطماع الأوروبية الحديثة في القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده، حيث حاولت أوروبا اقتسام أملاك «الرجل المريض» الدولة العثمانية أو الحصول على امتيازات في أراضيها. فإذا كانت أوروبا قد حصلت على امتيازات من الدولة العباسية في أوج قوتها فإن أوروبا في العصر الحديث تستطيع الحصول على الامتيازات ذاتها من العثمانيين، وبمعنى آخر فإن هذه الفرضية المزعومة عدت بمثابة «سابقة» يمكن الاستناد عليها في تنفيذ مشاريع الاستعمار الأوروبي والحركة الصهيونية بفلسطين.

وبعد مقتل الخليفة العباسي المتوكل ٢٤٧هـ/ ٨٦١م على من قبل القادة العسكريين الترك الذين سيطروا على مقدرات الخلافة العباسية، بدأ الضعف السياسي الإداري يدب في أوصال الدولة العباسية واستفحلت النزعات الانفصالية في الأقاليم القريبة والبعيدة، وبقدر تعلق الأمر بالأوضاع في فلسطين فإن أحمد بن طولون الذي نجح في تأسيس إمارة وراثية له في مصر سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م بدأ يتطلع –وهذا أمر طبيعي– إلى فلسطين لكي يضمها إلى منطقة نفوذه، ولعل الدافع الأول لقيامه بهذا العمل هو الدفاع عن مصر، فالمعروف تاريخياً أن أي نظام يحكم مصر لا بد أن يؤمن نفسه عن طريق مد نفوذه إلى بلاد الشام، فالخطوط الدفاعية الأولى عن مصر ذاتها تبدأ من فلسطين خصوصاً وبلاد الشام عموماً، أما الدوافع الأخرى فلا شك أنها سياسية تهدف إلى دعم قوته وتوسيع دولته، واقتصادية غايتها الاستفادة من خيرات بلاد الشام الزراعية والتجارية، ثم إن الأوضاع الداخلية في فلسطين وهي من أقاليم الجوار بالنسبة إلى مصر كانت مضطربة، فالنزاع كان على أشده بين قبائل جذام ولخم ولم يستطع عيسى بن الشيخ الشيباني وأولاده من بعده السيطرة على الأحوال في الأقاليم الجنوبية من بلاد الشام، كما لم تستطع الخلافة العباسية ذلك. وهنا وجد أحمد بن طولون الفرصة مناسبة للتحرك نحو فلسطين ثم سيطر على بلاد الشام كافة سنة ٢٦٤هـ/ عام ٨٧٧م وما بعدها. ولم تكن الخلافة العباسية في العراق راضية عن ضم بلاد الشام من قبل ابن طولون الذي كشف عن اطماعه ونواياه التوسعية على حساب الخلافة العباسية. وبقيت الحرب سجالاً بين العباسيين والطولونيين للسيطرة على فلسطين بخاصة، وبلاد الشام بعامة، كان من بينها معركة الطواحين سنة ٢٧١هـ/ عام٨٨٥م بين الأمير العباسي الموفق قائد الجيش العباسي وولي العهد وبين خمارويه بن أحمد بن طولون التي انتهت بانتصار الجيش الطولوني، وبعد معارك أخرى تنادى الطرفان إلى الصلح حيث اعترف العباسيون بموجبه بولاية خمارويه الطولوني على مصر وبلاد الشام لمدة ثلاثين سنة مقابل الدعوة في مصر والشام للخلافة العباسية، كما وقعت مصاهرة سياسية بين الأسرتين بزواج المعتضد بن الموفق من قطر الندى ابنة خمارويه[٢٤].

وقد شهد المسرح السياسي في بلاد الشام الجنوبية ظهور حركة القرامطة [٢٥] (وهي حركة متطرفة منشقة عن الدعوة الإسماعيلية) مع نهايات القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وبدايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وقد استغلت هذه الحركة الأعراب والقبائل البدوية في فلسطين وبقية إقليم جنوب بلاد الشام كأداة لإثارة القلاقل والإضطرابات للإمارات التي تعاقبت على الحكم في هذا الإقليم مثل الطولونيين ومن بعدهم الإخشيديين، وكذلك للخلافة العباسية ببغداد، وقد نشطت حركة القرامطة بفلسطين ونقلت مقرها من سلمية إلى الرملة، مما أضعف النفوذ الطولوني في هذه المنطقة إلى حد كبير، وقد أذكت هذه الحالة أمل البيزنطيين في استعادة فلسطين، فكانت الاضطرابات في القدس وقيسارية وعسقلان تشير إلى الأصابع البيزنطية التي تحركها من وراء الستار.

عادت بلاد الشام، ومنها فلسطين، إلى نفوذ الخلافة العباسية بعد القضاء على الطولونيين، فكان الخلفاء العباسيون يعينون ولاة مصر وولاة الشام وفي عام٣٢٣هـ/ سنة ٩٣٢م وُلِيَ الخليفة الراضي محمود بن طقج مصر والشام، حيث بدأ حكم الإمارة الإخشيدية في هذه الأقاليم. وكان هم الإخشيديين مثلما كان هم الطولونيين قبلهم استمرار نفوذهم على فلسطين وبلاد الشام الجنوبية لأهميتها الاستراتيجية لهم، وكان القائد محمد بن رائق أمير الامراء السابق في بغداد قد نجح في السيطرة على دمشق عام ٣٢٨هـ/ سنة٩٤٠م وضم إليها الرملة والعريش، أصبح خطره يهدد النفوذ الإخشيدي في مصر. وكان لا بد من الحرب بين الطرفين (محمد بن رائق والإخشيد محمد بن طفج) والتي انتهت بهزيمة الإخشيد، حيث اتفقا على اقتسام مناطق جنوبي بلاد الشام، فتكون الرملة وما وراءها للإخشيد، وبقية بلاد الشام لابن رائق، وتعهد الإخشيد بدفع أتاوة سنوية مقدارها مائة ألف وأربعين ألف دينار. وما أن سمع الإخشيد بمقتل ابن رائق عام ٣٣٠هـ/ سنة ٩٤٢م حتى عاد فضم جنوب بلاد الشام إلى نفوذه في مصر[٢٦]، ولكن قوة قبلية جديدة بدأت تهدد سلطات الإخشيديين وهي الإمارة الحمدانية في شمال بلاد

الشام وإقليم الجزيرة الفراتية، وقد وقعت معارك عديدة بين الطرفين وبخاصة في الرملة واللجون، وكان الإخشيديون في مفاوضاتهم يصرون على الاحتفاظ بفلسطين ضمن نفوذهم، ويبدو أن الخلافة العباسية في بغداد كانت أكثر ميلاً إليهم وتأييداً لهم. ولعل ما يدل على اهتمام الإخشيديين بفلسطين وبخاصة بيت المقدس أن غالبية أمرائهم دفنوا فيها أمثال محمد بن طفح، وأولاده وإخوانه، وانتهاءً بكافور الإخشيدي[٢٧].

فلسطين في العصر الفاطمي

في عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م بدأ العصر الفاطمي عندما استطاع القائد جوهر الصقلي أن يستولي على مصر باسم المعز لدين الله الفاطمي، الذي بدأ في الحال يتطلع لضم فلسطين وعموم بلاد الشام إلى نفوذه. والواقع أن أهداف الفاطميين في بلاد الشام كانت أعمق من مجرد حماية مركزهم في مصر، أو للأسباب الاقتصادية التي أشرنا إليها سابقاً، بل إن السبب الأكثر أهمية هو نشر المذهب الإسماعيلي في أرجاء العالم الإسلامي، ومحاولة كسب الأقاليم الإسلامية، الواحد بعد الآخر، لتأييد الفاطميين وصولاً إلى إسقاط الخلافة العباسية والحلول محلها في زعامة (دار الإسلام).

لقد أرسل جوهر الصقلي القائد جعفر بن فلاح مع جيش بهدف الاستيلاء على فلسطين، ومن ثم بلاد الشام عموماً، وكانت معركة الرملة بفلسطين أولى المعارك بين قوات الإخشيديين والقوات الفاطمية ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م. ثم استولى القائد الفاطمي على طبرية ومن ثم دمشق. على أن حكم الفاطميين لفلسطين وبلاد الشام ظل هشاً، ولم يزد الأوضاع المضطربة إلا اضطراباً، ذلك أن سكان بلاد الشام لم يستسيغوا الحكم الفاطمي سواء من الناحية المذهبية، أو من حيث سياساته التسلطية المستندة إلى القوة، أو بسبب محاولتهم نقل طرق التجارة من فلسطين إلى الإسكندرية. فكان على الفاطميين أن يواجهوا القوى السياسية القديمة في بلاد الشام المتمثلة بالحمدانيين والقرامطة، ثم القوى الجديدة من قبلية وسلجوقية وحتى بيزنطية، ولم يكن خطر الفاطميين بأحسن من خطر الكيانات التي سبقتهم في حكم مصر، فقد دخلوا في معارك طاحنة مع الولاة الترك

وشيوخ القبائل العربية والقرامطة، فكانت فلسطين الساحة الاعتيادية لهذا المعارك كونها الإقليم الذي يصل مصر ببلاد الشام[٢٨].

لقد بدأت القبائل العربية في بلاد الشام بالظهور قوة سياسية لها وزنها على مسرح الأحداث. وكان بنو الجراح الطائيون من أشهر هذه القبائل في فلسطين ابتداءً من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مستغلين التخلخل في الوضع السياسي في جنوب بلاد الشام من حيث ضعف الخلافة العباسية المركزية من جهة وكره السكان للعباسيين وكثرة ثوراتهم ضد الفاطميين من جهة أخرى، وقد أيد بنو الجراح الحركات المعارضة للفاطميين في فلسطين، وتحالفوا مع القرامطة ضد الفاطميين، ويمكن القول -بصفة عامة- أن سياسة بني الجراح في فلسطين تجاه الفاطميين أو القرامطة أو القوى الأخرى كانت سياسة تتسم بالانتهازية والتقلب حسب مصالحهم الآنية. هذا رغم أن بني الجراح وغيرهم من القوى القبلية العربية الأخرى كانوا بصورة عامة معارضين للوجود الفاطمي في فلسطين وبلاد الشام سياسياً ومذهبياً[٢٩].

وكان رد الفاطميين على الحركات المعارضة لهم في فلسطين عنيفاً، فلم يكن أمامهم غير خيار واحد، وهو الإبقاء على فلسطين وبلاد الشام الجنوبية تحت نفوذهم، لكونها تشكل خطوطهم الدفاعية المتقدمة عن مصر، ولتكون حاجزاً بينهم وبين بغداد العباسية والأناضول البيزنطية. ولهذا كانت الأحوال في فلسطين تتأثر إلى حد كبير بالعلاقات الفاطمية -البيزنطية -أو الفاطمية- العباسية. والمعروف أن البيزنطيين كانوا ما يزالون يحلمون باستعادة نفوذهم في فلسطين، وقد دخلوا -خلال هذه الفترة- في تحالفات عديدة مع القوى السياسية، وبخاصة بعد ذلك بقليل مع الفرنجة الصليبيين لتحقيق هدفهم. أما في هذه الفترة فقد كانت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين متأرجحة بين الحرب والسلم، فقد وقعت هدنة بين الطرفين عام ٣٧٧هـ ثم نقضت عام ٣٨٣هـ ثم جددت عام ٣٩١هـ/ سنة ١٠٠٠م. وكانت الأزمة في العلاقات الفاطمية -البيزنطية تنعكس على سياستهما الداخلية أيضاً، وذلك باتخاذ إجراءات محددة مثل إصدار الإمبراطور البيزنطي أوامر بقطع التجارة مع بلاد الشام ومصر، وبهدم جامع القسطنطينية، كما أصدر الحاكم

بأمر الله الفاطمي أوامره بهدم كنيسة القيامة في القدس وكنائس أخرى، أو الأمر بإلزام النصارى لبس الغيار وهي ملابس تميزهم من المسلمين[٣٠].

والملاحظ أن الفترة بين تفكك الخلافة العباسية وبين سقوطها في حوالي منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي من أكثر الفترات اضطراباً في تاريخ فلسطين حيث تتابعت وتزامنت عدة قوى سياسية كان لها نفوذها في المنطقة، من فاطمية، وسلجوقية، وفرنجية، ثم أيوبية، وأخيراً مملوكية، وقد شهدت فلسطين وبلاد الشام عموماً خلال الفترة الفاطمية تغلغل قوتين سياسيتين: الأولى سلجوقية والثانية فرنجية.

أما السلاجقة فجاءوا من الشرق، ويعدّون من الترك الغزاة الذين دخلوا دار الإسلام من أواسط آسيا وتركستان وسيطروا على بغداد عام ٤٤٧هـ/ سنة١٠٥٥م ثم بدأوا يتسللون إلى بلاد الشام، وفي حوالي عام٤٦٠هـ/ سنة ١٠٦٧م دعا بدر الجمالي الوزير الفاطمي في مصر جماعة من الترك تدعى (الناوكية) بزعامة اتسز بن أوق، وأسكنهم فلسطين بهدف استخدامهم لوقف هجمات البدو على القدس عام ٤٦٥هـ/ سنة ١٠٧٢م، وأعلنوا الولاء للخلافة العباسية وللسلطان السلجوقي في بغداد. وقد نجح اتسز بعد سلسلة من العمليات العسكرية ضد الفاطميين في تأسيس كيان سياسي امتد من الغور بفلسطين حتى حمص، ثم ما لبث أن سيطر على دمشق. ولكن طموحات اتسز العريضة ورطته في صراع مع الفاطميين أنهك قوته العسكرية، فغدا لقمة سائغة لسلاجقة العراق وأرسل السلطان ملكشاه أخاه تتش مقطعاً إياه كل ما تمكن من السيطرة عليه من البلدان الواقعة تحت النفوذ الفاطمي في بلاد الشام. وكان أول عمل قام به التخلص من اتسز بقتله عام ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، وضم جميع فلسطين ووسط بلاد الشام إلى نفوذه، كما غدت القدس ضمن سلطته بعد أن استولى عليها أحد قادته وهو ارتق بن أكسب فمنحها إقطاعاً له. وهكذا غدت فلسطين وجنوب بلاد الشام منطقتي: نفوذ الأولى فاطمية وتشمل الساحل، والثانية سلجوقية وتشمل الجليل وطبريا ونابلس والقدس. وظلت الأوضاع السياسية على هذه الشاكلة حتى مجيء الفرنجة الصليبيين[٣١].

فلسطين والنفوذ الإفرنجي - الصليبي

امتدت الفترة التي أطلق عليها مصطلح «الحروب الصليبية» في صفحتها الرئيسية في فلسطين حوالي تسعين سنة من سنة ٤٩٣هـ/ عام ١٠٩٩م إلى ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. وكان بدؤها -كما هو معروف- في النداء الذي وجهه البابا أوربان الثاني سنة ٤٨٩هـ/ عام ١٠٩٥م من كليرمون بفرنسا داعياً إلى الحرب من أجل انقاذ القبر المقدس من أيدي المسلمين، ومن هنا فقد كانت وجهتها المفترضة هي فلسطين، مع أن فلسطين كانت صفحة واحدة من صحفات هذه الحروب التي استمرت سجالاً بين الطرفين الإسلامي والفرنجي حتى طرد آخر المقاتلين الفرنجة من عكا سنة ٦٩٠هـ/ عام ١٢٩١م.

لقد عالج العديد من المؤرخين الأسباب المتعددة[٣٢] التي دفعت هذه الجموع الفقيرة من الناس من مختلف الفئات والمشارب، والطبقات الغنية والفقيرة للتوجه نحو بيت المقدس. والواقع أن هذه الحملات العدائية المسلحة التي ألبست لبوس الدين ما هي في واقع الأمر إلا مظهر من مظاهر العداء بين الشرق والغرب تخفي وراءها أهدافاً للإستيطان في المشرق العربي الإسلامي من أجل تحقيق مشاريع سياسية واقتصادية بحتة، خطط لها ملوك وأمراء أوروبا بالاشتراك مع أصحاب المصالح التجارية في المدن الإيطالية، مثل بيزا وجنوة والبندقية. ولم يكن بين هؤلاء الأمراء والتجار أي صلة تربطهم بالحرب الدينية أو بالسلام الحقيقي في الأراضي المقدسة، وإنما استخدموا شعار «الصليب» لتمرير أهدافهم الدنيوية الخاصة مستغلين نزعة الإيمان الغالبة في العصر الوسيط في الغرب المسيحي مثلما هي في الشرق الإسلامي، وهذا يفسر أن خمساً من الحملات «الصليبية» الثماني المعروفة، لم يكن هدفها القدس، بل اتجهت إلى مناطق أخرى!!.

أما ما ورد في بعض الادعاءات الفرنجية من أن السبب المباشر للحروب «الصليبية» يعود إلى اضطهاد الحجاج المسيحيين الذاهبين لزيارة الأماكن المقدسة، فليس له أساس

من الصحة، ما عدا حالات استثنائية معدودة شملت المسلمين والمسيحيين على حد سواء في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي أو الأراتقة في فلسطين. ولم يكن مسيحيو الشرق مضطهدين بل كان بطارقتهم يزورون القسطنطينية متى شاؤوا وبخاصة لحضور المؤتمرات الكنسية، وإذا كان ثمة ما يدعو إلى قيام حرب بين طرفين فربما كان على الأوروبيين شنها ضد الإمبراطورية البيزنطية، لأن المشاكل والعقبات التي كانت قوافل الحجاج البرية تواجهها في الأراضي البيزنطية أكثر من تلك التي تصادفها في أراضي المسلمين.

لقد كانت فلسطين الهدف الأول، لا بسبب وجود الأماكن المقدسة فيها فحسب، بل لأسباب أخرى أكثر أهمية بالنسبة للأمراء والتجار والفقراء على حد سواء. فأرضها مغرية كثيرة الخيرات، وهذا ما جعلها هدفاً للأمراء لتأسيس الممالك والإمارات الإقطاعية، وهدفاً للفقراء في الوقت نفسه للحصول على «اللبن والعسل» والذهب الذي يبتغونه. أما تجار المدن الإيطالية فكانوا يتنافسون على احتكار تجارة الموانئ المصرية والشامية على حد سواء. وفوق هذا وذاك كانت الكنيسة ترغب في أن يمتد نفوذ البابا الديني والدنيوي ليسود الغرب والشرق جميعاً. وهكذا، ومن أجل هذه الأهداف الدنيوية تعرض المشرق العربي الإسلامي إلى سلسة من الحروب الشرسة دفع ثمنها غالياً بشرياً وحضارياً خلال قرنين من الزمان.

وكانت خطة الحملة الفرنجية الأولى التجمع في القسطنطينية سنة ٤٩٠/١٠٩٦م وحين تحركت باتجاه بلاد الشام وأثناء زحفها هزمت القوة الإسلامية الوحيدة التي تصدت لهم وهي قوة سلاجقة الروم وفي سنة٤٩١هـ/١٠٩٧م نجحوا في تأسيس أول إمارة فرنجية هي إمارة الرها (أوديسا)[٣٣].

لقد بدا ضعف الجبهة الإسلامية واضحاً أمام الفرنجة في حملتهم الصليبية الأولى، فبلاد الشام مقسمة بين الفاطميين من جهة والأمراء السلاجقة أو نوابهم من جهة أخرى. فكانت القدس وأطرافها ما تزال تحت حكم إمارة الأراتقة شبه المستقلة، وهنا بدت انتهازية الفاطميين بمصر وقصر نظرهم حين بادروا إلى إرسال وفد إلى الفرنجة من أجل

اقتسام بلاد الشام حيث يكون القسم الشمالي للفرنجة والقسم الجنوبي بما فيه فلسطين للفاطميين، وزادوا على ذلك بالوعود السخية لتقديم المؤن والرجال في حالة الاتفاق. ففي سبيل القضاء على السلاجقة وحلفائهم في بلاد الشام قدم الفاطميون هذه العروض للفرنجة المحتلين الغرباء دون أن يدركوا أن هؤلاء إنما جاءوا من أجل السيطرة على كل بلاد الشام وعلى فلسطين بالذات. بل إن مشاريعهم امتدت إلى مصر التي كانت في نظرهم الطريق الأصح إلى فلسطين[٣٤].

لقد أرسل الفاطميون عدة وفود إلى الفرنجة مجددين عروضهم السخية دون جدوى، وكانت فلسطين قد وقعت تحت السيطرة الفاطمية قبل زحف الفرنجية بوقت قصير سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٨م، وفي ٧ تموز سنة١٠٩٩م كانت الجموع الفرنجية المسلحة أمام القدس، حيث نفذوا إليها بعد مقاومة دامت أربعين يوماً لم تتلق حاميتها خلالها أي نجدة من الأمراء المسلمين حولها. وتشير الروايات التاريخية[٣٥] إلى المذبحة الرهيبة التي اقترفها الفرنجة الصليبيون في القدس، فقد قتلوا من أهلها حوالي سبعين ألفاً دون أن يفرقوا بين لائذ في المسجد الأقصى أو مختف في داره. بهذه المجزرة البشعة بداية مملكة بيت المقدس الصليبية التي شملت، بالإضافة إلى القدس، كلاً من طبريا شمالاً إلى بيسان ونابلس والرملة مع ميناء يافا على البحر.

لقد ضاق أهالي بلاد الشام، ومنهم الفلسطينيون ذرعاً بالحالة، وسافرت جماعات منهم إلى بغداد مركز الخلافة العباسية الأم سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، وتجمهروا في المساجد والجوامع، ومنعوا الخطباء والأئمة من الخطبة أيام الجمع، وطالبوا الخليفة العباسي بالتحرك وإرسال العسكر لصد الفرنجة (أو الروم كما كانوا يتصورون). ولكن الذي استجاب هو الأمير مودود صاحب الموصل، الذي اتفق مع الأتابك طغتكين صاحب دمشق على التصدي للفرنجة وهي سياسة لاقت قبولاً شعبياً كبيراً في بلاد الشام وحققت لطغتكين احترام بغداد والقاهرة على حد سواء.

وبعد استشهاد مودود صاحب الموصل الذي قتله الحشيشية الإسماعيلية سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، واصل صاحب دمشق سياسة التعرض والمقاومة ضد الفرنجة، وهاجم قواعدهم كلما سنحت له الفرصة بذلك، واضعاً نصب عينيه تحقيق حد أدنى من وحدة الصف في علاقاته مع حكام المدن ببلاد الشام.، وقد أثرت هذه السياسة بتحقيق عدة انتصارات على الفرنجة لعل أشهرها الانتصار في معركة طبرية وأسر الملك بغدوين ملك بيت المقدس، رغم تمكنه من الإفلات بعد وقت قصير.

تابع طفتكين سياسته حتى وفاته سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م، وكانت سيرته سابقة ونموذجاً لصلاح الدين الأيوبي في السير على خطاه في المستقبل القريب، أما ردود الفعل العباسية والفاطمية فلم تكن بالمستوى المطلوب.

حين بدأت مصر الفاطمية تشن غاراتها المتقطعة على مملكة بيت المقدس كان رد فعل الملك بغدوين توسيع مملكته باتجاه وادي عربة حتى أيلة (العقبة)، وبذلك قطع طريق المواصلات بين مصر وبلاد الشام وقسم الجبهة الإسلامية إلى قسمين. أما بالنسبة لمملكة بيت المقدس فقد كان لهذه الخطوة مردودات اقتصادية مهمة حيث أصبح لها منفذ ثان على البحر سهل حركة التجارة بمختلف أنواعها، وأدى إلى ازدهار اقتصادها وبخاصة بعد أن بنى بغدوين حصن الشوبك ٥١٠هـ/١١١٦م ليكون نقطة تجمع للمقاتلة لحماية القوافل وضمان الأمن[٣٦].

أصبح للفرنجة الصليبيين أربعة كيانات سياسية في بلاد الشام: أولها إمارة الرها، ثم أنطاكية، ثم طرابلس، ثم مملكة بيت المقدس. وكانت هذه الأخيرة الأقوى والأكثر سعة وازدهاراً اقتصادياً، إضافة إلى سمعتها الدينية باعتبارها تضم القدس. ومع ذلك كله فإن عوامل الضعف في هذه الكيانات الفرنجية الدخيلة كانت واضحة منذ البداية، ذلك أنها جميعاً اعتمدت، أساساً، في بقائها واستمرارها على مقدار ما تتلقاه من دعم مادي وبشري من أوروبا. ومن ثم فقد جاء التدهور والضعف في هذه الكيانات الفرنجية سريعاً وكان سقوط الرها بيد المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي صاحب الموصل سنة

٥٣٩هـ/ ١١٤٤م البداية، لأنها كشفت عن مدى تغلب المصالح الدنيوية عند الأمراء الفرنجة على الأهداف الدينية المزعومة.

وفي الوقت الذي بدأت فيه قوة نور الدين بن عماد الدين بالظهور في بلاد الشام، كان الفاطميون، في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثاني عشر الميلادي، يمرون بمرحلة الانهيار، حيث حكم الدولة خلفاء ضعفاء، وكانت السلطة الفعلية بيد الوزراء. وإذا كانت مملكة بيت المقدس قد انتزعت من الفاطميين ميناء عسقلان الفلسطيني، فإن نور الدين محمود قد نجح في مد نفوذه إلى دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، وهنا بدأ التنافس بين نور الدين محمود وعموري الأول (ملك بيت المقدس) للاستيلاء على مصر لما لها –لكلا الطرفين– من أهمية استراتيجية واقتصادية. وعلى الرغم من المساعدة الحربية التي قدمها الإمبراطور البيزنطي لملك بيت المقدس، فقد كان النصر في نهاية المطاف لنور الدين محمود الذي أرسل حملته إلى مصر بقيادة شيركوه الذي أصبح، في الوقت نفسه، وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد، ولكنه توفي بعد مدة وحل محله ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م[٣٧].

صحيح أن هدف مصر الفاطمية كان الاحتفاظ بفلسطين، أو محاولة استردادها بعد استيلاء الفرنجة عليها، إلا أن الصحيح أيضاً هو أن السياسة المصلحية الأنانية التي اتبعتها في سبيل تحقيق هذا الهدف، والتي كانت لا تتورع عن التعاون مع الفرنجة المحتلين ضد القوى الإسلامية الأخرى الموجودة في بلاد الشام هي التي عزلتهم وحالت دون تحقيق هدفهم. ومن هنا فقد جاء إلغاء صلاح الدين يوسف بن أيوب للخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م نتيجة طبيعية لتطور الأحداث حيث فقدت الخلافة مبررات وجودها، هذا بالإضافة إلى الخطوة من جانب صلاح الدين قد وحدت الجبهتين المصرية والشامية في جبهة واحدة[٣٨].

إن زعيماً مثل صلاح الدين الأيوبي لم يبلغ ما بلغه من فراغ، فمن المؤكد أن شخصيته وسياسته كانت مستندة على الزعماء البناة قبله، أمثال اتسزوتتش وطفتكين

ومودود وعماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، لقد بدأ صلاح الدين منذ الوهلة الأولى يعد العدة للمعركة مع الفرنجة الصليبيين، وبخاصة بعد أن خلا له الجو بوفاة نور الدين محمود، الذي توفي في السنة نفسها الملك عموري ملك بيت المقدس. وكان صلاح الدين يدرك أن الأمر يحتاج إلى كثير من الجهد والحزم وفوق ذلك كله الصبر، كما أنه كان يتحلى باليقظة والحذر، ولولاهما لما نجا من عدة مؤامرات استهدفت قتله كان يدبرها الفرنجة في القدس بالتعاون مع الحشيشية، وهي فرقة إسماعيلية متطرفة منشقة عن الإسماعيلية التقليدية، أسسها الحسين الصباح في قلعة الموت بجبال إيران الشمالية(٣٩). وقد اتخذت الإرهاب والاغتيال السياسي وسيلة لتحقيق أهدافها، فكان الكثير من أبرز شخصيات الفترة ضحاياها أمثال الأمير مودود والأُفضل بن بدر الجمالي والبرسقي (أتابك الموصل)، وكاد صلاح الدين الأيوبي أن يكون ضحية أخرى لها. هذا بالإضافة إلى الوزير نظام الملك السلجوقي وشخصيات أخرى من الفرنجة كذلك.

العلاقات الإسلامية - الفرنجية تدخل منعطفاً جديداً

بظهور صلاح الدين الأيوبي على الساحة بدأ منعطف جديد في الحرب التي تدور سجالاً بين الفرنجة الصليبيين والمسلمين. تميز هذا المنعطف بدخول الجبهة الإسلامية مرحلة الوحدة والقوة، وهذا يفسر أن أول عمل قام به صلاح الدين بعد سيطرته على مصر هو محاولة فتح الطريق بين مصر وبلاد الشام سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م في سعيه لإيجاد رأس جسر بين الجبهتين الإسلاميتين. وكان طبيعياً ومتوقعاً والحالة هذه أن يستنجد الفرنجة بأوروبا لإرسال حملة «صليبية» جديدة، ولإحياء الخطط مع البيزنطيين التي تهدف للسيطرة على مصر.

كان صلاح الدين الأيوبي مشغولاً بالعمل من أجل توحيد أقاليم بلاد الشام والجزيرة الفراتية تحت نفوذه، واضعاً نصب عينيه إعادة دولة نور الدين محمود الموحدة، وبانضمام حلب إلى دولته عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م نجح صلاح الدين في تحقيق حلمه،

فكان هذا، على حد تعبير المؤرخ وليم الصوري، «أسوأ حدث يمكن أن ينزل بالفرنجة»[٤٠]. لقد امتدت دولة الوحدة الإسلامية من مصر إلى الحجاز واليمن ثم دمشق وحلب وأطراف الجزيرة الفراتية. وكان على صلاح الدين أن يعيد المحاولة لفتح طريق مصر- بلاد الشام لإحكام السيطرة على طرق المواصلات التي تربط هذين الإقليمين ببعضهما وبالحجاز.

إلا أن العقبة الرئيسية في طريق ربط الأقاليم الإسلامية الثلاثة كانت للفارس الفرنسي رينالد دي شاتيون الذي تسميه المصادر العربية «أرناط». وأرناط غير جدير بحمل لقب فارس. لأن صفاته الخلقية وتعصبه الديني وتعطشه للدماء لا تمت إلى تقاليد الفروسية بأية صلة. لقد حصل أرناط في غفلة من الزمن على حصني الكرك والشوبك، فغدا يتحكم في طرق المواصلات والتجارة في المنطقة. ولم يكتف أرناط بذلك بل سيطر على سواحل البحر الأحمر الشمالية وأنشأ له أسطولاً حاول استخدامه لتهديد المدينة المنورة، وقد نبه صلاح الدين الأيوبي مملكة بيت المقدس من مغبة أعمال أرناط هذه، وحذرها بأن هذه الأعمال إنما تهدد في انهيار الهدنة المعقودة بين الطرفين. وأن صلاح الدين لا يستطيع أن يقف مكتوف الأيدي تجاه هذه الأعمال الاستفزازية وبخاصة أنها تثير المشاعر الدينية لدى المسلمين، وعبثاً حاول ملك بيت المقدس إيقاف أرناط عند حده لكنه لم يلتفت إلى أوامره[٤١].

إن تهور أرناط ورعونته حالت دون إدراكه أن صلاح الدين الأيوبي غدا أكبر قوة في المنطقة. وفي سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، حدث ما كان يتوقعه صلاح الدين، فقد قاد أرناط جنده قاصداً مكة، فاحتج صلاح الدين لدى ملك بيت المقدس الذي أقر بعدالة طلبه، ولكنه لم يستطع أن يقنع أرناط بالتراجع، فكانت الحرب أمراً لا بد منه. سار صلاح الدين الأيوبي من مصر إلى بلاد الشام ماراً بايلة (العقبة)، ثم دمشق، وبعد أن استراح وجيشه عدة أسابيع خرج إلى الأقحوانة جنوب طبريا، ثم هاجم بيروت براً وبحراً دون أن يتمكن من فتحها.

إن كل هذه الحركات العسكرية التي قام بها صلاح الدين الأيوبي وأعوانه على مملكة بيت المقدس وعلى معاقل الفرنجة شمالاً وجنوباً لم تؤد إلى إدراك أرناط صاحب الكرك والشوبك لخطورة الموقف والعواقب الوخيمة التي قد تسببها نشاطاته المتسمة بالقرصنة في البحر الأحمر والطرق البرية الموصلة إلى الحجاز. ففي سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م كرر أرناط استفزازاته بالهجوم على مكة والمدينة والسيطرة على موانئ البحر الأحمر، ولكن العادل (أخا صلاح الدين) استطاع أن يوقف الزحف الصليبي بإرسال أسطول بحري قوي طوق الصليبيين وطاردهم، وأحرق أسطولهم، فمنهم من قتل ومنهم من وقع في الأسر، وكان ذلك عام ١١٨٢م وفي الوقت الذي كانت فيه قوات صلاح الدين تجوب المنطقة من فلسطين وجنوب بلاد الشام دون أن ينازعها أحد، بل إن ريموند – الوصي على عرش بيت المقدس – طلب من صلاح الدين هدنة أمدها أربع سنوات اعتباراً من سنة ١١٨٥م/ ٥٨١هـ ووافق صلاح الدين على عقدها فنشطت التجارة، وساد الرخاء في ظل السلام[٤٢] ولكن لفترة قصيرة.

لقد تبدلت الظروف بسرعة خلال أقل من سنتين فقد أبعد ريموند الوصي على عرش بيت المقدس وأعلن غي لورنينيان ملكاً عليها. كما أن أمير الكرك والشوبك الفرنجي أرناط لم يرجعوا عن مواقفهم المعادية للمسلمين بل استمروا في مهاجمة قوافلهم التجارية وقوافل الحجيج، وقد حدث عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م أن هاجم أرناط قافلة كبيرة قادمة من القاهرة نحو دمشق فقتل حراسها ونهب ما فيها، فاحتج صلاح الدين الأيوبي مرة أخرى على هذا العمل المناقض للهدنة ورفض أرناط الاحتجاج، كما أنه لم يبال بأوامر ملك بيت المقدس بضرورة إعادة الأموال المنهوبة إلى أصحابها ولم يتخذ الملك أي إجراء ضده[٤٣].

وقع هذا التحدي الجديد من أرناط لصلاح الدين في وقت كان صلاح الدين في أحسن قوته وعدته بينما كان الفرنجة في أسوأ أوضاعهم العسكرية والاقتصادية. ولكن أرناط هو الذي اختار الوقت وفرض المعركة على صلاح الدين الأيوبي. لقد جمع

الطرفان كل ما يمكنهما من قوات ومؤن حيث بلغ عدد المقاتلة حوالي ٢٥ ألفاً لكل طرف. وكان صلاح الدين قد اشتبك مع الفرنجة عند (صفورية) فأباد طلائعهم المكونة من خمسمائة فارس. ثم احتل طبرية وبقي بانتظار الفرنجة الذين وصلوا إلى المرتفعات المشرفة على سهل حطين، وكانوا في وضع مترد بسبب العطش والتعب، وكان الوقت شهر تموز من عام ١١٨٧م، ودام القتال طيلة الليل وصباح اليوم التالي وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وأسر الملك غي وأرناط وغيرهما من البارونات والفرسان، أما ريموند أمير طرابلس فقد استطاع الهرب مع عدد من الأمراء في أثناء المعركة. وقد حدثت المعركة (معركة حطين) في ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[٤٤].

لقد كانت معركة حطين حاسمة بكل المقاييس العسكرية، فقد تحطم الجيش الفرنجي عن آخره، وعلى حد قول أحد المؤرخين الرواد "فكان من يرى القتلى يظن أنهم لم يأسروا أحداً، ومن يرى الأسرى يظن أنهم لم يقتلوا أحداً"[٤٥].

وقد وضعت معركة حطين نهاية لأشرس هجمة استيطانية حربية استعمارية حتى ذلك الوقت، والأهم من ذلك أن حطين: «قد حسمت الموقف بين المسلمين والفرنجة فأثبتت حق الأولين نهائياً في أرضهم، وأنهت في المقابل أحلام التوطن والتأقلم مع الشرق لدى الآخرين. وأفهمت فرنج الغرب والشرق- ولو أن ذلك جاء متأخراً - أن الدولة المصطنعة التي تعيش على استيراد السكان والمال والنفوذ والسلاح لا يمكن أن تعيش، ولا بد أن تسقط في اللحظة التي ينقطع فيها الحبل السري الواصل بينها وبين الغرب»[٤٦].

وقد سقطت مملكة بيت المقدس، ثم انهارت المدن الفلسطينية والساحلية الواحدة بعد الأخرى، وأخيراً استسلمت مدينة القدس نفسها، وسمح صلاح الدين الأيوبي بخروج الفرنجة منها بأموالهم وأمتعتهم مقابل أن يفتدي كل منهم نفسه بمبلغ صغير من المال. ويسجل المؤرخون[٤٧] هذه الروح المتسامحة لصلاح الدين سنة ١١٨٧م حين استعاد

القدس، فيتذكرون في المقابل المجزرة البشعة التي ارتكبها الفرنجة حين استولوا على القدس عام ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كان من نتائج معركة حطين أيضاً البدء بالإعداد للحملة الصليبية الثالثة التي كانت في واقعها رد فعلٍ حتمي على حالة الخوف والخيبة التي أصابت أوروبا بعد وصول أخبار انتصارات صلاح الدين الأيوبي إليها والحاجة إلى استرداد القدس وكل فلسطين تقريباً. ولما كان صلاح الدين الأيوبي لم يسترد مدينة صور وتركها مركزاً لتجمع الفرنجة الهاربين والمستسلمين فقد غدت الميناء الرئيسي الذي يوصل أوروبا بالفرنجة ومركزاً لتجمع الفرنجة في بلاد الشام. وقد وصلها بالفعل كونراد مونتغرات داعياً لإنقاذ القدس من أيدي المسلمين. وأعلنت الكنيسة في روما –من جانبها– الحرب الصليبية مرة أخرى، واتصل البابا الجديد كليمنت الثالث بملوك أوروبا. وهكذا فقد ضمت الحملة الجديدة أربعة ملوك هم : ملك انكلتر وملك فرنسا وملك صقلية وإمبراطور ألمانيا والعديد من البارونات والدوقات. وقد وضعت هذه الحملة أمبراطور بيزنطة في موقف حرج للغاية، ذلك أن بيزنطة كانت على علاقة طيبة مع صلاح الدين الأيوبي، كما وأنها كانت تطمح ببعض الامتيازات الدينية على الأماكن المقدسة المسيحية في بيت المقدس. هذا بالإضافة إلى خوف الإمبراطور البيزنطي على أمن دولته وسلامتها من الأعداد الكبيرة التي ضمتها الحملة. ولكن هذه الحملة كانت تحمل بذور ضعفها منذ البداية بسبب الخصومات بين قادتها من جهة، وبسبب غلبة الدوافع الدنيوية على الدينية من جهة أخرى، بحيث بات ما يسمى «بالحملات الصليبية» حروباً «استعمارية» ذات أهداف سياسية واقتصادية مكشوفة. يضاف إلى ذلك عاملٌ آخر هو العداء الشديد بين قادة الفرنجة في المشرق وعلى رأسهم كونراد مونتغرات صاحب صور، والملك غي ملك بيت المقدس السابق الذي وقف إلى جانبه ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد الذي نجح في السيطرة على عكا بعد مجزرة فظيعة ذبح فيها ثلاثة آلاف أسير مسلم سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، وبهذا صارت كل من صور وعكا بيد الفرنجة. وقد تابع ريتشارد

قلب الأسد تحركاته محاولاً ضم موانئ الساحل الفلسطيني إلى نفوذه، كما طالب صلاح الدين الأيوبي بإعادة القدس وجوارها إلى الفرنجة وحين رفض طلبه وقعت معركة أرسوف، فكانت سجالاً بين الجانبين[٤٨]، ثم بدأ مفاوضات سرية بين الطرفين أصر فيها الفرنجة على إعادة مملكة بيت المقدس ومرة ثانية رفض الطلب. وتشير رواية تاريخية إلى موقف صلاح الدين في قوله:

«القدس لنا كما هو لكم. وهو عندنا كما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومحشر أمتنا، فلا تتصوروا أن نتنازل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين»[٤٩].

وحين أدرك الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد صلابة الموقف الإسلامي النابع من قوة المسلمين العسكرية وارتفاع معنوياتهم، كتب إلى صلاح الدين الأيوبي بضرورة استئناف المفاوضات قائلاً: «إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من أيدي الطائفتين»[٥٠].

فاستجاب صلاح الدين وتوصل الطرفان إلى صلح الرملة في عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م وبموجبه: منح الفرنجة حرية الزيارة والحج إلى الأماكن المقدسة في القدس وضواحيها شرط أن يكونوا بأعداد صغيرة، ويحتفظ الفرنجة الصليبيون بالساحل من صور إلى يافا، بينما يحتفظ المسلمون بعسقلان، أما اللد والرملة فتقسمان مناصفة بين الجانبين، وكانت مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر[٥١].

ويشكل صلح الرملة منعطفاً واضحاً في تاريخ فلسطين خلال هذه الحقبة. لقد أدركت قيادتا الطرفين التعب والملل الذي أصاب المقاتلة من جراء المعارك المتتابعة، وتشير رواية تاريخية إلى أن أحد أسباب قبول صلاح الدين لهدنة الرملة هو «سآمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة»[٥٢]، كما ينعكس ذلك في البهجة والارتياح الذي عم الناس حين سماعهم بأنباء الصلح الذي كان عاماً شاملاً في البر والبحر. وانقسمت فلسطين والساحل الشمالي إلى منطقتي نفوذ، الداخل بما فيه القدس بيد المسلمين والساحل الذي كان يدعى مملكة بيت المقدس ومركزه عكا بيد الفرنجة.

لقد فشلت الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق أهدافها وعاد ريتشار قلب الأسد إلى بلده عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، ولكن المهم أن قادة الطرفين: الفرنجي والإسلامي كانوا مدركين تماماً للمتغيرات الجديدة على الساحة، ومن هنا كانت مواقفهم وسياساتهم تتسم بالكثير من مظاهر المرونة والتسامح والدعوة إلى التمازج والاختلاط، وعلى حد قول صلاح الدين الأيوبي:

«إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل»(٥٣).

على أن صلاح الدين الأيوبي لم يعش طويلاً ليشهد ثمرة إنجازاته، فبعد أقل من سنة من صلح الرملة توفي في دمشق عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م. لقد كان صلاح الدين – بالنسبة للمسلمين – البطل الذي حقق الوحدة وأعاد الهوية العربية – الإسلامية لفلسطين، وحرر القدس من الفرنجة المغتصبين، ولعله الشخص الوحيد الذي اتفق الغرب والشرق على اعتبـــاره النمـــوذج (للفارس) بكل ما يحمل هذا الاسم من صفات نبيلة

HE IS CONSIDERED AN EXAMPLE OF CHIVALRY IN HISTORY (54).

وفي الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين الأيوبي حكمت بلاد الشام ومنها فلسطين شخصيات من أسرته (إخوانه وأبناؤه وأبناء إخوانه) وقد حاول أخوه الملك العادل (صاحب مصر) أن يملأ الفراغ الذي تركه غياب صلاح الدين دون جدوى.

وبدلاً من أن تبقى فلسطين –كما كانت أيام صلاح الدين– منطقتي نفوذ إسلامية وفرنجية، غدت أربعة أقسام: الأولى ساحلية إفرنجية، والثلاثة الباقية أيوبية متنافسة مع بعضها . ورغم أن هذه الفترة شهدت عدة حملات «صليبية» ولكنها، في غالبيتها العظمى، لم يكن هدفها فلسطين أو بيت المقدس، بل على العكس فإن القادمين الجدد من الفرنجة

اشتبكوا في قتال عنيف مع المستوطنين الفرنجة في مملكة بيت المقدس. وكان معظم أمراء الأسرة الأيوبية يفضلون السلم على القتال في علاقتهم بالفرنجة، ويبدو أن كلاً من الملك العادل، وهو أشهر ملوك الأيوبيين، في هذه المرحلة والذي شملت مملكته مصر وجنوب بلاد الشام ومنها دمشق والقدس وكذلك حمص وبعض مناطق الجزيرة الفراتية، والملك عموري ملك مملكة بيت المقدس الجديد كانا يميلان إلى الصلح حيث عقدت معاهدة عام ٦٠٤هـ/ ١٢١٤م بينهما أمدها ست سنوات. كما وأن الكامل (ابن العادل) عقد اتفاقاً تجارياً مع تجار البندقية في حوالي الوقت نفسه، فمنحهم امتيازاً في الموانئ المصرية مما سهل لهم التجارة مع المحيط الهندي عبر البحر الأحمر(٥٥).

أما في أوروبا فقد كانت البابوية ما تزال تدعو إلى حملة «صليبية» جديدة لاستعادة بيت المقدس، والغريب في أمر هذه الدعوة أنها كانت موجهة ضد مصر باعتبار أن السيطرة على مصر أولاً تضمن استعادة القدس. وقد وصلت هذه الحملة التي سميت الخامسة إلى دمياط ٦١٥هـ/ ١٢١٨م. وتعاون الملك المعظم (ابن العادل) صاحب دمشق وفلسطين مع أخيه الملك الكامل صاحب مصر وبدت الجبهة الإسلامية المصرية – الشامية صامدة لولا وصول الأنباء بالهجوم المغولي على المشرق وإمكانيات التعاون المغولي- الافرنجي، وفي هذه الساعات الصعبة تقدم الملك الكامل بعرض فاجأ به الفرنجة والمسلمين على حد سواء، فقد اقترح أن يعيد للفرنجة مملكة بيت المقدس القديمة بحدودها ١١٨٧م باستثناء الكرك ليبقى على الجسر البري بين بلاد الشام الجنوبية ومصر، ورفض الفرنجة هذا العرض المغري فقد كان احتلال مصر وما تدره من خيرات التجارة أكثر إغراء –بالنسبة للفرنجة- من القدس.

وقد أدرك قادة المسلمين هذه المتغيرات في التفكير الفرنجي منذ زمن، واستعدوا لمجابهة الفرنجة حيث تعاون مع الملك الكامل أخواه المعظم (صاحب دمشق وفلسطين)

والملك الأشرف (صاحب الجزيرة الفراتية)، على أن الذي أنقذ مصر هو فيضان النيل حيث حاصرتهم المياه والأوحال من كل مكان، فاستغاثوا بالكامل يطلبون الخروج من مصر دون شروط، فاستجاب إلى طلبهم وعقدت هدنة بين الطرفين أمدها ثماني سنوات ٦١٨هـ/ ١٢٢١م[٥٦].

كان على المشرق الإسلامي أن يواجه حملة «صليبية» جديدة بحلول عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني الذي اختلف مع البابا قبل خروجه من أوروبا، لكنه حقق نجاحاً كبيراً في المشرق دون قتال وذلك بسبب الخلاف الذي اشتد أواره بين أبناء الملك العادل، وقد أدى هذا الخلاف وتفاقم الخطر الخوارزمي ثم المغولي من جهة إيران واحتمالات التعاون بين المغول والفرنجة إلى عقد معاهدة يافا عام ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م بين الملك الكامل وفريدرك الثاني، أعطى بموجبها القدس وبيت لحم والناصرة وبعض مدن الساحل للفرنجة شريطة ألا تعمر أسوار القدس ويبقى الحرم القدسي للمسلمين وتبقى سائر قرى القدس للمسلمين أيضاً[٥٧].

لقد وقع نبأ تسليم القدس للفرنجة دون حرب وقع الصاعقة على المسلمين، ففي رواية تاريخية:

«وحين نودي في القدس بتسليمه للفرنج ضج المسلمون بالصراخ والعويل... فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظائم بحيث إنه أقيمت المآتم»[٥٨].

وفي رأي مؤرخ معاصر فإن الرأي العالم الإسلامي « رأى في موقف الكامل منتهى التخاذل وتغليب المصالح السياسية الأمنية على القيم الدينية العليا «ذلك لأن المسلمين» قدروا مدى الخسارة التي لم يدركها الكامل بتصوره أن القدس مجرد «كنائس وخرائب»[٥٩].

على أن معاهدة يافا فسحت المجال للملك الكامل ولأخيه الأشرف للتفرغ للخطر الخوارزمي الذي كان قد سيطر على بعض المدن الأيوبية الحدودية مثل خلاط ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م. ولكن الخوارزميين لم يعمروا طويلاً حيث حل خطر أكبر وهو الخطر المغولي الذي كان –ومنذ وقت ليس بالقصير- يتفاوت مع القوى الفرنجية لسحق القوى الإسلامية في بلاد الشام ومصر. ولكن الأيوبيين- مثلهم مثل الفرنجة في بلاد الشام- كانوا في حالة من الضعف والتناحر السياسي لا تؤهلهم لمقاومة الخطر الجديد. وقد لمع بين الأمراء الأيوبيين الملك الصالح نجم الدين أيوب (ابن الكامل) صاحب دمشق الذي نجح في ضم مصر وفلسطين إليه، حيث انتزعها من أخيه في الوقت الذي تنازل فيه للفرنجة عن مدن إسلامية في الجليل وطبريا.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن انهيار الدولة الخوارزمية على إثر مقتل جلال الدين منكوربرتي عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م أدخل عنصراً جديداً إلى الساحة في بلاد الشام. ذلك أن المقاتلة من جيش جلال انتشروا في بلاد الشام يعرضون خدماتهم على الأمراء والملوك. وقد استغلهم الملك الصالح أيوب أحسن استغلال ضد الأمراء الأيوبيين المنافسين له وحلفائهم من الفرنجة في بلاد الشام. وقد تقدم جيش الصالح أيوب والخوارزمية نحو القدس وأخذوها من يد الفرنجة عام٦٤١هـ/ ١٢٤٤م ثم استردوا طبريا ونابلس.

ثم وقعت المعركة بين الصالح أيوب وحلفائه من الخوارزمية وبين أمراء الأيوبيين في بلاد الشام وحلفائهم من الفرنجة قرب غزة، انتصر فيها الصالح أيوب وسحق أعداءه من الأمراء الأيوبيين وحلفائهم الفرنجة، فكانت مجزرة رهيبة لهؤلاء لا تقل عن معركة حطين. ومن هنا جاءت تسميتها(حطين الثانية). إلا أن نتائجها لم تكن في المجال العسكري فقط بل حققت مكاسب سياسية مهمة على الأرض حيث استعاد المسلمون كل ما حققه زعماء الفرنجة من مكاسب من خلال المفاوضات السابقة، وفي المقابل استعادت الدولة

الأيوبية وحدتها حين دانت القدس ودمشق والقاهرة بالطاعة للملك الصالح أيوب، وأكثر من ذلك فقد قدم له أمراء بلاد الشام الولاء. ولكن الاستقرار والسلام لم يستمرا طويلاً فقد كان لويس التاسع ملك فرنسا يعد العدة لحملة جديدة هي الحملة السابعة، وكان هولاكو يقترب من حدود المشرق العربي ويستعد لاحتلال بغداد وإسقاط الخلافة العباسية. وقد وقع بالفعل الاتصال بين الفرنجة والمغول قبل تحرك لويس التاسع من فرنسا،وكان الهدف تطويق القوى الإسلامية من الجهتين الشرقية والغربية[٦٠].

فلسطين في العهد المملوكي

لقد أشرنا سابقاً بأن استعادة صلاح الدين الأيوبي للقدس من الفرنجة «الصليبيين» عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م قد حفز أوروبا الغربية على القيام بالحملة الصليبية الثالثة. ونشير هنا بأن استعادة الملك الصالح نجم الدين أيوب للقدس ثانية من الفرنجة «الصليبيين» عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م حفز أوروبا لشن حملتها الصليبية السابعة بزعامة ملك فرنسا لويس التاسع بهدف الاستيلاء على القدس وكل فلسطين.

لقد قدر الملك لويس التاسع (القديس لويس) أن الاستيلاء على فلسطين لن يتم إلا عبر مصر، فإذا نجح في قهر الجيوش المصرية يصبح من السهل عليه العبور نحو فلسطين. ولكن حملة القديس لويس عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م فشلت، وانتصر الجيش المصري في معركة المنصورة رغم وفاة الملك الصالح أثناء الحملة وتسلم أرملته شجرة الدر زمام الحكم. ثم مالبث قادة المماليك أن أنهوا الحكم الأيوبي وأقاموا السلطنة المملوكية عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م[٦١].

بعد إطلاق سراح لويس التاسع بموجب اتفاق بينه وبين السلطة المملوكية الجديدة استقر بعكا في فلسطين، مجدداً مملكة القدس الصليبية، ومراسلاً أمراء أوروبا من

أجل إرسال حملة صليبية جديدة. وفي الوقت نفسه حاول استغلال الصراع الجديد بين الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام، وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب وبين قادة المماليك في مصر بزعامة عز الدين أيبك. وقد نجح خلال هذه الفترة في توسيع نفوذه السياسي ليشمل قيسارية الصليبية ويافا. ولكن اليأس الذي دب في نفسية الملك لويس بسبب فشل أوروبا في إرسال حملة جديدة دفعه إلى مغادرة فلسطين إلى فرنسا، كما أن الخلافة العباسية تحركت سريعاً للتوسط بين الطرفين الأيوبي والمملوكي من أجل عقد صلح بينهما عام (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م، تنازل بموجبه الأيوبيون عن القدس ونابلس وغزة للمماليك. وهذا ما يعيد إلى الأذهان إصرار الكيانات السياسية الحاكمة في مصر على الاحتفاظ بموطئ قدم لها في جنوب بلاد الشام، لاستخدامها في الدفاع عن مصر، وهذا السبب هو الذي دفع المماليك بالتحرك السريع نحو الشام حين تابع المغول تقدمهم نحو بلاد الشام بعد استيلائهم على بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، واحتلالهم حلب ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، ثم دمشق في السنة نفسها[٦٢].

وكان الأمير قطز قد تسلم السلطنة المملوكية، ورفض كل تهديدات هولاكو المغولي، وأمر بالزحف نحو غزة بفلسطين بقيادة بيبرس البندقداري. وكانت المعركة الفاصلة في (عين جالوت)[٦٣] بين بيسان ونابلس، حيث توجت بانتصار الجيش المملوكي في ٢٥ رمضان عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، فكانت من المعارك الفاصلة في التاريخ إذ إنها أنهت أسطورة الجيش المغولي الذي لا يقهر، وصانت مصر، وبدأت قوات المغول بالانسحاب إلى ما وراء نهر الفرات كما أصبحت الساحة مهيأة لطرد بقايا الفرنجة الصليبيين من بلاد الشام.

لقد كان من نتائج معركة عين جالوت سيطرة المماليك على جميع بلاد الشام تقريباً، وبقدر تعلق الأمر بموضوع بحثنا فقد كان على المماليك التصدي لبقايا الفرنجة في بلاد الشام، وكذلك الاستعداد لمواجهة الحملة الصليبية الجديدة من أوروبا (الحملة السابعة). ولم يضيع السلطان الجديد الظاهر بيبرس وقتاً طويلاً في الاستعداد لتصفية الوجود

الفرنجي-الصليبي، فزار فلسطين ثم دمشق بعد عام فقط من توليه السلطة، وبعد حركات استطلاعية عديدة هاجم قيسارية ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م وسيطر عليها ثم حرر حيفا وأرسوف في السنة نفسها، ثم قام بيبرس بهدم الحصون والقلاع الساحلية حتى لا يستخدمها الفرنجة القادمون من أوروبا بحراً، ثم عاد بعد ذلك إلى مصر.

وفي السنة التالية ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م قاد الظاهر بيبرس قواته ثانية إلى بلاد الشام عبر فلسطين متخذاً طريق غزة. وقد حاصر في هذه الحملة عكا التي صمدت واستعصت عليه ثم نجح، بعد معارك ضارية، في استعادة صفد في شهر تموز من تلك السنة، وأمر بإعادة عمارتها.

كانت عملية استعادة يافا عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م آخر فتوحات الظاهر بيبرس بفلسطين، وبقيت عكا مستعصية عليه، وعزز الفرنجة تحصينه، ووصلتها إمدادات جديدة من البحر مما أشعرهم بقوتهم لدرجة أن اتصالات جديدة قد حدثت بينهم وبين المغول هدفها التعاون ضد الظاهر بيبرس ونفوذه في بلاد الشام. وإزاء هذا الوضع الصعب استقبل الظاهر بيبرس رسل الفرنجة الصليبيين من عكا الذين وصلوا إلى القاهرة وعقد معهم هدنة أمدها عشر سنوات وعشرة أشهر في رمضان ٦٧٠هـ/ ١٢٧٢م[٦٤].

وتوفى الظاهر بيبرس ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م بعد أن حقق إنجازاً مهماً عن طريق تصفية الوجود «الصليبي» في فلسطين وبلاد الشام عموماً ، ويعد عمله استكمالاً لما حققه السلطان المظفر سيف الدين قطز في موقعة عين جالوت وما تم قبل ذلك على يد صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين. وقد طغت الملاحم الشعبية على سيرة الظاهر بيبرس الحقيقية، تلك الملاحم التي عكست مدى تعلق الشعب بالبطل الذي دافع عن الأرض المسلوبة واستعادها ومات وهو يحقق النجاحات تلو النجاحات عن طريق استرداد كل شبر منها.

لقد حكمت مصر بعد وفاة الظاهر بيبرس بقليل أسرة مملوكية جديدة كان زعيمها الأمير قلاوون الذي لقب نفسه بالمنصور بعد تسلمه السلطة. ومنذ البداية عمل قلاوون

على الاستمرار في جهاد الفرنجة الصليبيين استكمالاً لجهود السلطان الظاهر بيبرس. فقد استرد طرابلس عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م. أما عكا التي كانت ما تزال مستعصية على الجيش الإسلامي فقد كان السلطان قلاوون قد عقد هدنة جديدة معها عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م مدة عشر سنوات وعشرة أشهر، كان من أهم بنودها[٦٥]: توقف كلٍ من الطرفين عن الاعتداء على أرض الطرف الآخر ويتعهد الفرنجة بإنذار السلطان المملوكي عن أي نشاط عدائي مغولي أو أوروبي والسماح للحجاج المسيحيين بالوصول إلى الأماكن المقدسة للعبادة وضمان سلامتهم. ولكن، وبعد مضي حوالي ست سنوات قام الفرنجة بعكا بأعمال عدائية ضد المسلمين عدها السلطان قلاوون خرقاً للهدنة المبرمة بينهما، ففي عام ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م حرك قلاوون جيوشه من مصر باتجاه عكا، إلا أنه توفي في الطريق فخلفه ابنه الأشرف خليل الذي واصل سياسة والده في السير نحو عكا واستعادتها. وبعد حصار دام أكثر من شهر سقطت عكا بأيدي المسلمين وأمر السلطان بتدمير قلاعها وتحصيناتها. وبسقوط عكا انتهى الوجود الصليبي الفرنجي في بلاد الشام وعادت إلى أهلها العرب والمسلمين، ذلك أن البقية الباقية من الفرنجة القابعين في حصونهم على الساحل في مدن صور وصيدا وبيروت تركوا مواقعهم وهربوا منها حال سماعهم بسقوط عكا[٦٦].

لقد أوجد السلاطين المماليك في فلسطين والمناطق الأخرى من بلاد الشام التي كانت تابعة لهم نظاماً إدارياً خاصة أطلق عليه اسم (النيابة) فكان هناك بالنسبة لفلسطين، مثلاً: نيابة القدس، ونيابة غزة، ونيابة صفد، وقد عدت هذه النيابات كيانات سياسية-إدارية يحكمها نائب يقوم مقام السلطان المملوكي وله صلاحياته كافة تقريباً. وكان الهدف من هذه النيابات أن تشكل حاجزاً بين السلطنة المملوكية في مصر وبين القوى الأخرى في الساحة الشامية من جهة، وأن تكون قاعدة عسكرية هجومية ضد المغول والبقية الباقية من شراذم الفرنجة الصليبيين أو أية قوة أخرى معادية للسلطنة المملوكية[٦٧].

لقد اهتم سلاطين المماليك من جهة أخرى- كالسلاطين الأيوبيين- بالمظهر الديني لدولتهم وتقربوا إلى الفقهاء والعلماء المسلمين. وأظهروا أن الجهاد واستعادة الأرض المغتصبة من أهم واجباتهم، كما أكثروا من بناء المساجد والمدارس التي كانت تدرس العلوم الدينية وغيرها. وكانت القدس والخليل من أهم المدن الفلسطينية التي حظيت بعناية خاصة من سلاطين المماليك، فقد أنشأوا فيها العديد من المرافق الخدمية والدينية والتعليمية وأوقفوا عليها الأوقاف لخدمتها وإدامتها. كما كان سلاطين المماليك يقومون بزيارة هاتين المدينتين بصورة علنية أو سرية. وقد أوجد المماليك وظيفة خاصة باسم (ناظر الحرمين الشريفين)، ويقصد بهما حرما القدس والخليل، وكان يهتم بأمورهما من جميع النواحي العمرانية والدينية والتعليمية. ومن المعروف تاريخياً أن فلسطين شهدت ازدهاراً علمياً وثقافياً واسعاً في أيام الدولة المملوكية. ولا مجال هنا لرصد كل المؤسسات التعليمية التي أنشئت وبخاصة في القدس والرملة ونابلس وبقية المدن الفلسطينية، إلا أن كثرة المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا وغيرها وارتياد العلماء والفقهاء والمؤرخين لهذه المؤسسات، وبخاصة بعد أن سقطت بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على يد المغول، وهاجر عدد كبير من علمائها إلى بلاد الشام والحجاز ومصر. وتحفل كتب التراجم المعاصرة للفترة المملوكية بسيرة العديد من الأعلام الفلسطينيين، ونخص بالذكر كتاب ابن حجر العسقلاني الموسوم (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) الذي لا يقتصر في معلوماته على نواحي الثقافة والتعليم بل يمتد إلى العمران والاقتصاد وغيرها.

ويلاحظ أن التقليد الذي بدأ في العصر العباسي ببغداد ظهر في المدن الإسلامية الأخرى، وهو ظهور أسر معروفة تحتكر مناصب القضاء والتعليم والإفتاء، حيث يرث الابن أباه في هذه المسؤوليات والمناصب. ويبدو أن مذهب الإمام الشافعي كان هو المذهب الشائع في فلسطين وتأتي بعده المذاهب السنية الأخرى. واهتم المسؤولون ببناء الحمامات لاهتمام الدين بالنظافة العامة، وقد ازداد بناء الحمامات في فلسطين في العصر المملوكي حتى كان في القدس أكثر من عشرة حمامات عامة، مما يدل على ارتقاء مستوى المعيشة، وشيوع الترف والرفاهية، وازدياد النشاط الاجتماعي داخل المدن الفلسطينية[٦٨].

لقد تزامن تدهور المؤسسة العسكرية للمماليك مع أولى الصدامات الحدودية مع العثمانيين، فقد ازدادت الخلافات بين السلطان الأشرف قايتباي المملوكي، وبايزيد العثماني، مما اضطر المماليك إلى تجهيز حملة عسكرية عام٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م جندوا فيها أعداداً كبيرة من أهالي المدن الفلسطينية، كما صادروا الكثير من الأموال والدواب لإسناد الحملة. وقد أدت هذه الإجراءات إلى نقمة شعبية في المدن الفلسطينية ومدن بلاد الشام بعامة، حيث أدركت عامة الناس أن لا مصلحة لها في هذه الحروب المستمرة التي تأكل الأخضر واليابس. وقد هرب الكثير من المجندين من أبناء القرى والمدن وعادوا إلى مناطقهم(٦٩).

فلسطين في العهد العثماني

لقد حدثت المعركة الفاصلة بين العثمانيين والمماليك في (مرج دابق) القريبة من حلب في رجب عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وذلك بعد حوالي سنتين من معركة (جالديران) بين العثمانيين والصفويين. وكان انتصار العثمانيين في كلتا المعركتين حاسماً بسبب اعتماد العثمانيين على السلاح الناري الذي كان يمقته المماليك، وبسبب خيانة عدد من الأمراء المماليك لسلطانهم وانضمامه إلى الجيش العثماني أثناء المعركة. وقد انهارت المقاومة المملوكية في كل المدن الشامية والفلسطينية ولم تقع سوى معركة واحدة على الحدود المصرية –الفلسطينية في خان يونس، وثم أعقبتها معركة (الريدانية) التي أدت إلى سقوط الدولة المملوكية عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م(٧٠).

كانت السياسة العثمانية في فلسطين تتمثل في الموازنة بين الزعامات المحلية العشائرية واستغلالها أدوات للحكم قدر الإمكان. وقد قسم العثمانيون بلاد الشام إلى ثلاث ولايات: الشام، حلب، طرابلس، وكانت فلسطين تابعة لولاية الشام، وتكونت من خمسة صناجق (الألوية) وهي: القدس، وغزة ونابلس، صفد وأخيراً اللجون، وينقسم الصنجق بدوره، إلى عدد من النواحي والقرى. وقد أولت السلطنة العثمانية فلسطين أهمية خاصة بالنظر لأهمية هذا الإقليم التجارية، ولكونه ممراً للطرق الرئيسية التي تربط دمشق بالقاهرة والحجاز. كما أن فلسطين كانت المعبر الرئيسي للطريق السلطاني الذي

تسير فيه قافلة الحج الشامي من دمشق إلى المدينة المنورة ومن ثم إلى مكة المكرمة. إن كل ذلك حتم على السلطة العثمانية إحكام قبضتها على الديار الفلسطينية، وإنشاء القلاع والحصون لإقامة الحاميات العسكرية فيها من أجل تأمين طرق الحج والتجارة، وتأمين الأمن للحجاج المسيحيين والزوار المسلمين إلى القدس نفسها والأماكن الدينية حولها[٧١].

لم يدافع أهل فلسطين عن الحكم المملوكي بسبب سوء الأوضاع في العقود الأخيرة من حكمهم، وقد خضعت المدن الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى للحكم العثماني. وإذا كانت بعض المدن الفلسطينية قد ثارت في السنوات الأولى من الحكم العثماني مثل غزة ونابلس فإن ذلك لم يكن حباً بالمماليك، بل ردة فعل طبيعية تجاه حكم غريب آخر. وقد أبقى العثمانيون -بصفة عامة- معظم الأمراء الفلسطينيين المحليين الذي تعهدوا بالتعاون معهم وتوفير الأمن وجباية الضرائب، ذلك لأن هؤلاء الأمراء يمثلون زعامات تقليدية لها نفوذها بين السكان. وهذا بدوره يفسر تعيين بعض الأمراء حكاماً للصناجق وإعطاءهم مسؤولية قيادة قافلة الحج الشامي لقدرتهم على توفير الأمن والسلامة للحجيج من هجمات الأعراب بل وحتى القبائل المستوطنة قريباً من الطريق التي تمر بها القافلة[٧٢].

بعد أن ثبت الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف وجبل لبنان نفوذه (٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م – ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م) تطلع إلى فلسطين ونجح في الاستيلاء على مناطق عديدة منها وإضعاف نفوذ أمرائها المحليين. وقد اعترف السلطان مراد الرابع العثماني بسلطة فخر الدين المعني لقاء تعهده بتحقيق الأمن ودفع الضريبة، ولكنه ما لبث أن قضى عليه بعد أن هزمه عسكرياً عام ١٦٣٥م في أول فرصة سنحت له[٧٣].

لقد ضعفت سلطة أمراء جبل لبنان في شمال فلسطين بعد مقتل الأمير فخر الدين المعني، وظهرت زعامة جديدة في فلسطين تمثلت بأسرة الزيادنة في منطقة الجليل وقد بلغت أوج قوتها في عهد ظاهر العمر (١١٤٣هـ/ ١٧٧٣م –١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م) حيث شمل نفوذه كل جنوب الشام وشمال فلسطين، وشمل حيفا وعكا مؤسساً إمارة عربية في فلسطين. وقد ساعدت عوامل عديدة، داخلية وخارجية، ظاهر العمر في تقوية حكمه بفلسطين لعل أهمها انقسام الزعماء المحليين على أنفسهم وحسن استغلاله لموارده المالية

في تأسيس جيش قوي، وانشغال السلطنة العثمانية في حروبها مع روسيا وإيران. وما أن انتهت الدولة العثمانية من حربها ضد روسيا حتى توجهت نحو ظاهر العمر الذي كان يعاني من الوهن بسبب ثورة أبنائه عليه، وتدخل أمراء جبل لبنان في شؤونه.

وقد عهد العثمانيون إلى والي دمشق سليمان باشا العظم بتسيير حملة عسكرية ضد ظاهر العمر، وقد حاول العظم القضاء على نفوذ العمر مرتين متتاليتين دون جدوى. كما استمر ضغط ولاة دمشق المتتابعين عليه، مما اضطره إلى التحالف مع حاكم مصر المملوكي علي بك واحتلال قواتهما المتحالفة دمشق ١٧٧١م، مما أثار السلطان العثماني الذي أرسل الأسطول فقضى عليه ١٧٧٥م، وبهذا انتهت إمارة عربية فلسطينية- عدت خلال فترة دامت أكثر من نصف قرن- مركزاً من مراكز المقاومة للحكام الغرباء[٧٤].

واستطاع أحمد باشا الجزار أن يستغل الفراغ السياسي الذي تركه ظاهر العمر وأن يحل محله، مشكلاً مركزاً من مراكز القوى السياسية في فلسطين منذ عام ١٧٧٥م وحتى ١٨٠٤م، وكان قدوم الجزار مع الحملة العثمانية عام ١٧٧٥م حيث استطاع بقواته من المماليك أن يسيطر على بلاد الشام الجنوبية جاعلاً مقره مدينة عكا القوية التحصين العصية على المهاجمين. ومن خلال نفوذه نجح في الحصول على ولاية الشام عدة مرات. ولم تكن ظاهرة حكم المماليك في بلاد الشام الجنوبية من خلال أحمد باشا الجزار ظاهرة استثنائية بل عمت هذه الظاهرة - وهي حكم المماليك- مصر والعراق خلال هذه الفترة من القرن الثامن عشر الميلادي، فقد استغل زعماء المماليك ضعف الدولة العثمانية، ووهن القوى المحلية، فحكموا باسم السلاطين العثمانيين حكماً استبدادياً شبه مستقل.

وامتدت سلطة أحمد باشا الجزار لتشمل -إضافة إلى فلسطين- ولايتي الشام وصيدا في جبل لبنان ولم يستطع العثمانيون التصرف تجاه تجاوزاته بتوسيع رقعة نفوذه. إلا أن أهم ما قام به الجزار هو تصديه للحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت، وذلك بتحالفه مع الأسطول الإنكليزي العدو التقليدي لفرنسا. فبعد أن احتل نابليون مصر ١٧٩٨م تحرك في السنة التالية باتجاه بلاد الشام عبر فلسطين، فسقطت أو استسلمت المدن الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى: العريش-خان يونس- الرملة -يافا- صفد- الناصرة-

طبرية. ولم تستعص عليه سوى عكا، حيث كان أحمد باشا الجزار يدافع عنها من الداخل مدعوماً بالأسطول الإنكليزي من البحر. ودام حصار عكا أكثر من شهرين، ولكنه فشل مما اضطر نابليون إلى الانسحاب باتجاه مصر، وفشلت بذلك كل طموحات نابليون الاقتصادية والسياسية في الشرق. وفي المقابل عزز الجزار نفوذه السياسي في بلاد الشام، وبقي يحكم المنطقة حتى وفاته ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م حيث خلفه في الحكم سليمان باشا العادل (حتى سنة ١٨١٩م)[٧٥].

كانت حملة نابليون بونابرت محاولة أوروبية لاحتلال فلسطين كتب لها الإخفاق، ولكن القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين شهدا محاولات أخرى للاستحواذ على فلسطين وبلاد الشام عموماً، منها حملة محمد علي باشا من مصر (عام١٨٣١م – ١٨٤٠م) ثم الحملة البريطانية –الفرنسية إبان الحرب العالمية لاحتلال فلسطين، وتمزيق الوطن العربي تمهيداً لتأسيس وطن قومي لليهود في قلبه.

ويلاحظ أن الساحة الفلسطينية شهدت العديد من الثورات المحلية ضد الحكم العثماني خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر، ولكن الخطر الوهابي الذي وصل إلى مشارف بلاد الشام الجنوبية وهدد قافلة الحج الشامي لم يلبث أن وحد قوى بلاد الشام العثمانية والمحلية العشائرية. وكانت مطالبة ولاة الشام العثمانيين بمبالغ إضافية بحجة تمويل قافلة الحج الشامي سبباً في حدوث العديد من القلاقل والاضطرابات في القدس ونابلس وقراهما، وفي العديد من المدن الفلسطينية الأخرى. وقد كانت هذه الأحداث من العوامل المهمة التي سهلت العمليات العسكرية المصرية التي أرسلها محمد علي باشا لبلاد الشام بقيادة ابنه إبراهيم باشا عام ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م.

تقدمت القوات المصرية باتجاه فلسطين فاحتلت غزة ويافا وحيفا والقدس والجليل دون مقاومة تذكر. وقاومت عكا الحصار البري والبحري مدة ستة أشهر حتى استسلمت في ٢٨ مايو ١٨٣٢م. وبعد أن احتلت القوات المصرية المدن السورية توغلت داخل الأناضول ولم تتوقف إلا بتدخل الدول الأوروبية التي توسطت بين الطرفين لعقد معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣م. حيث احتفظ محمد علي باشا بحكم مصر لأسرته من بعده، مع

استمرار نفوذه على بلاد الشام، ولكن ردود الفعل تجاه الحكم المصري كانت سريعة في بلاد الشام، فقد بدأت الثورات تعم المدن الفلسطينية وأريافها منذعام ١٨٣٤م بسبب إجراءات إبراهيم باشا الضرائبية والعسكرية، وبخاصة ما يتعلق منها بالتجنيد الإجباري، وبإجراءات نزع السلاح من سكان الريف والبدو. ورغم وصول الإمدادات لإبراهيم باشا من مصر إلا أنه وجد صعوبة في السيطرة على أقاليم بلاد الشام وكانت المعارك سجالاً بين الطرفين وقد أجبرت هذه الأوضاع سلطات محمد علي باشا على إعادة النظر في التنظيم الإداري لبلاد الشام، وتطبيق الحكم اللامركزي في بعض المناطق. ولكن الأوضاع المضطربة بقيت على حالها حتى تقرر في مؤتمر لندن (١٥ تموز عام ١٨٤٠م) انسحاب القوات المصرية من بلاد الشام. وقد ساعدت بريطانيا بقواتها البحرية الدولة العثمانية على استعادة المدن السورية والفلسطينية الواحدة تلو الأخرى. وقد قاسى إبراهيم باشا وهو ينسحب باتجاه مصر من قسوة الطبيعة وهجمات أبناء القرى والبدو الأمرين، ولاسيما في أثناء عبوره فلسطين باتجاه غزة في كانون الثاني عام ١٨٤١م، وبهذا كانت نهاية حملة محمد علي باشا مثل نهاية حملة نابليون بونابرت على فلسطين[٧٦].

إن عودة السيطرة العثمانية على فلسطين بمساعدة الدول الأوروبية وبخاصة بريطانيا لم يغير من الوضع السياسي كثيراً، فقد فشل العثمانيون في فرض نفوذهم على نابلس والخليل وجبال القدس. وقد أذعن العثمانيون للأمر الواقع وبخاصة في المناطق الجنوبية من فلسطين، واعترفوا بنفوذ زعماء القبائل العربية مقابل قيامهم بجباية الضرائب في مناطقهم. ومن أشهر هؤلاء الزعماء الشيخ مصطفى أبو غوش في منطقة القدس وكان شيخ اليمانية، والشيخ عبد الرحمن آل عمرو شيخ القيسية وزعيم منطقة الخليل. ومن الأساليب الإدارية الأخرى التي اعتمدها العثمانيون في منتصف القرن التاسع عشر إنشاء ولاية القدس التي ترتبط بالباب العالي في استانبول في عام ١٨٥٤م، وتعيين وال عثماني عليها. وقد ساعد هذا الإجراء مؤقتاً على استقرار الأوضاع نسبياً. إلا أن سلطة العثمانيين بقيت متذبذبة تبعاً للظروف المحلية والإقليمية والدولية. واستمر العثمانيون في إحداث تبدلات إدارية في تبعية الصناجق والنواحي لهذه الولاية أو تلك. كما تابعوا

سياستهم التقليدية في إحداث الشقاق بين شيوخ العشائر وزعماء المناطق في فلسطين وضرب بعضهم ببعضهم الآخر. كل هذه التنظيمات وغيرها مثل إشراك ممثلين عن الأسر المتنفذة في إدارة شؤون مناطقهم، وتعيين ممثلين عن الطوائف غير الإسلامية في مجالس الإدارة كانت تهدف إلى سيطرة الباب العالي على بلاد الشام ومنها فلسطين إدارياً والأهم من ذلك تأمين جباية الضرائب ووصولها إلى الدولة العثمانية[٧٧].

إن الجانب المهم من تاريخ فلسطين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو تدخل الدول الأوروبية واستغلال نفوذها في الدولة العثمانية بهدف تمرير المشروع الصهيوني الذي يهدف إلى هجرة أكبر عدد ممكن من يهود العالم إلى فلسطين، واستقرارهم فيها، وشرائهم الأراضي من أهلها وصولاً إلى تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين.

ورغم الإجراءات التي اتخذتها السلطات المحلية فإن هجرة اليهود وبخاصة في أوائل الثمانينات من القرن نفسه وشرائهم الأراضي كان آخذاً بالازدياد والتوسع. ويستفاد من تقارير الرحالة والخبراء الأجانب خلال[٧٨] هذه الفترة أن مدناً فلسطينية عديدة كانت لا تضم يهوداً على الإطلاق أو تحتوي على نسبة ضئيلة جداً منهم مثل الرملة والناصرة. ومما هو جدير بالذكر أن الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وقفت موقفاً صلباً من هجرة اليهود واستيطانهم في فلسطين، إلا أن المنظمات الصهيونية وبمساعدة الدول الأوروبية كانت تجد المخارج للالتفاف على قرارات السلطان العثماني، هذا بالإضافة إلى أن تواطؤ بعض الإداريين العثمانيين والزعماء المحليين من ملاك الأراضي، أو طمعهم، سهل مهمة شراء الأراضي والاستيطان اليهودي في فلسطين. وقد ساعدت أسر رأسمالية أوروبية مثل أسرة روتشيلد اليهود لإقامة مستعمرات زراعية لهم في فلسطين بهدف إغرائهم بالاستقرار الدائم. وقد آتت هذه الجهود ثمارها حيث اكتظت باليهود العديد من المدن الفلسطينية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر.

وفي ١٨٩٦م أصدر تيودور هرتزل كتابه (الدولة اليهودية) أوضح فيه بصراحة مبادئ الحركة الصهيونية وأهدافها الرامية إلى إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. وفي السنة

نفسها كان هرتزل قد اتصل بالسلطان عبد الحميد الثاني عارضاً تسوية الديون العثمانية مع أوروبا كافة مقابل الموافقة على إعطاء فلسطين لليهود. وقد رفض السلطان هذا العرض رفضاً تاماً. إلا أن هرتزل لم يفقد الأمل ونجح في مقابلة السلطان عبد الحميد ١٩٠١م ولكنه، وللمرة الثانية، لم يحصل على ما يريد(٧٩).

وبعد أن تسلمت جمعية تركيا الفتاة السلطة في الدولة العثمانية ١٩٠٩م، تعرضت حكومة الاتحاد والترقي إلى ضغوط من الدول الأوروبية ومن المنظمات اليهودية العالمية بهدف السماح بالهجرة اليهودية وشراء الأراضي في فلسطين. وقد ذهبت أدراج الرياح أصوات العرب في فلسطين ومعارضة ممثليهم في (مجلس المبعوثان العثماني). كما أدرك عدد من دعاة القومية العربية والنهضة الإسلامية مخاطر الحركة الصهيونية على المنطقة، لعل من أبرزهم السيد محمد رشيد رضا فيما كتبه من مقالات في المنار(٨٠).

ثم تفجرت الحرب العالمية الأولى وكانت أحداثها قد طغت على ما كان يجري في فلسطين من مقاومة عربية محلية للمشاريع الاستيطانية الصهيونية. ونشطت الحركة القومية العربية في تصديها لمشاريع القوميين الترك الذين بلغوا ذروة التعسف حين أقدم جمال باشا السفاح على إعدام الزعماء العرب مما أسرع في إعلان الشريف الحسين بن علي وأبنائه الثورة العربية الكبرى في ١٠ حزيران ١٩١٦م. وقد أعقبها إعلان بلفور وزير خارجية بريطانيا وعده بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين في تشرين الثاني عام ١٩١٧م، وبهذا غدت فلسطين مرة أخرى قضية ودخلت منعطفاً جديداً في تاريخها.

الخاتمة

إن موضوع هذا الفصل يعد في جوهره استقصاءً موجزاً للعلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب الفرنجي المسيحي في حقبة حساسة من حقب التاريخ،وهي العصر الوسيط وردحاً من العصر الحديث. وكان الهدف الرئيسي هو إبراز العوامل المادية والروحية التي كانت تتحكم في طبيعة هذه الصلات، وذلك لأن المشاكل والصعوبات التي اعترت هذه العلاقات في العصور الوسطى، هي نفسها التي تواجهنا اليوم رغم المتغيرات الجديدة على الساحة والتي أدت إلى اختلاف المفاهيم وتبدل الشعارات وتنوعها. ومن هنا جاءت قيمة هذا الفصل في الكشف عن الجذور التاريخية لما نواجهه اليوم من مواقف وسياسات دولية وبخاصة ما يتعلق منها بفلسطين والقدس.

إن أول ما نلحظه في طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب هو تلك النظرة المتحيزة التي اعتادت عليها أوروبا في موقفها من الشرق. فمنذ القرن السادس عشر الميلادي عاشت أوروبا بمستوى حضاري تميز بتفوقه المادي والثقافي. وقد نسي المجتمع الأوروبي أو تناسى المستوى الحضاري المتدني الذي كان فيه في العصر الوسيط. بل إن مفكري أوروبا المحدثين لم يتحملوا حتى مجرد التفكير في حضارات كانت يوماً ما أرقى منهم بدرجات عديدة. وهذا ما أكد عليه بارتولد حين قال: «إن أوروبا الغربية في العصور الوسطى كانت بلاداً متأخرة قياساً، تماماً كتأخر الشرق اليوم بالقياس إلى أوروبا. ولكن الأسس المنبثقة في طرق البحث التاريخية تجد صعوبة في إزالة الخرافة التي تعد أوروبا في كل العصور تحتل تلك الأهمية العالمية التي تتمتع بها الآن»[٨١].

وهناك النظرة المسبقة التي نظر بها المجتمع الأوروبي إلى المجتمع الإسلامي. فقد كانت، وما زالت، الصورة التي يحملها الأوروبيون عن العرب والمسلمين صورة مشوهة ومجحفة. صحيح أن بعض التعديل قد طرأ على هذه الصورة بمرور الزمن وزيادة الاتصال والاختلاط حين تعرف الأوروبيون على الحضارة العربية الإسلامية ونظمها، ودرس الطلبة الأوروبيون في مدارس الأندلس، واستمعوا إلى مناقشات الأساتذة في

العلوم الإنسانية والصرفة، وبدأوا يتسخدمون الأرقام العربية بعد أن كانت ممنوعة، وتدارسوا «البوصلة» التي أخذوها من العرب وظهر أنها ليست من عمل الشيطان، ولا تستخدم في تضليل البشر، كما كان يدعي رجال الكنيسة في أوروبا[٨٢]. إلا أن هذا التعديل الذي طرأ على صورة المسلمين في أوروبا كان وما يزال طفيفاً. إن قيام الدولة العربية الإسلامية بحضارتها المزدهرة مثل مشكلة سياسية وحضارية لأوروبا في العصور الوسطى كان عليها أن تواجهها عسكرياً وعقيدياً من جهة، وأن تتعامل معها حضارياً وتجارياً من جهة أخرى. وقد اتخذت أساليب المجابهة وطرق التعامل هذه أشكالاً متنوعة عبر العصور المتتابعة، وتبعاً للمتغيرات والمستجدات التي ظهرت على مسرح الأحداث في الشرق والغرب. وقد اختلفت الشعارات باختلاف العصور: فكان شعار «شارلمان حامي الأراض المقدسة وبيده مفاتيح القدس وكنيسة القيامة» مناسباً لفترة هارون الرشيد في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ثم استبدل بشعار «استعادة الأراضي المقدسة والقبر المقدس من أيدي الكفرة البرابرة» خلال عصر الحروب «الصليبية» في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وما بعده. وفي بدايات العصر الحديث رفعت أوروبا شعار «الشرق المتخلف» الذي يحتاج إلى «وصاية» وهذه الوصاية هي مسؤولية أوروبا وهي «عبء الرجل الأبيض» لمساعدة الشرقيين في الوصول إلى التمدن. وليس غريباً بعد ذلك أن تدّعي الصهيونية وهي حركة أوروبية أنها جاءت إلى الشرق لتبني كياناً متحضراً على النموذج الأوروبي يحتذى به أهل المنطقة وأقاليم الجوار!!.

إن كل هذه الشعارات القديمة/ الجديدة وغيرها، تخفي وراءها هدفاً واحداً مشتركاً هو التدخل لتحقيق مصالح سياسية- اقتصادية ليس إلا.

الهوامش

١. هشام بن محمد بن الكلبي، جمهرة الأنساب، ليدن، جـ٢، ص٣٧٥ فما بعده.

٢. فشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والعريني، مصر، ١٩٦٩، ص٣٣٢ فما بعد.

3. AL-ALI, AXES OF EXPANSION FROM ARABIA PART III, (HISTORY OF S.C.D.M) UNESCO., PARIS, NEW EDITION.

٤. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، طبعة القاهرة، ١٩٦٠، جـ٣، ص٤٦٣.

٥. ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٧٩، جـ١، ص١٣٥.

٦. الطبري، تاريخ ،جـ٤، ص٧٢ فما بعد.

٧. الواقدي، المغازي، بيروت، د.ت. جـ٣، ص ٧٧٠.

8. VASILIEV, HISTORY OF THE BYZANTINE, VOL.1, U.S.A, 1970,P371.

٩. الواقدي، فتوح الشام، بيروت، د.ت. ط. البلاذري، فتوح البلدان بيروت، ١٩٧٨، ١١٦.

١٠. الواقدي فتوح الشام، جـ١، ص١٨.

١١. الطبري تاريخ الرسل والملوك، طبعة القاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٣، ص٦٠٨ (نص العهدة العمرية) ص٦٠٩ فما بعد.

١٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٨٨ فما بعد.

١٣. من أجل التفاصيل، راجع ابن الكلبي، المصدر السابق، (تبعاً لأسماء القبائل).

١٤. الطبري، تاريخ ، جـ٥، ص١٦١.

١٥. الطبري، تاريخ جـ٣، ص٢٥٨.

16. F. DONNER, THE EARLY ISLAMIC CONQUESTS, PRINCETION, 1981, P.132.

١٧. الطبري، تاريخ ، جـ٧، ص٤٢٢. فما بعد – فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت ١٩٧٠ ص٤١ فما بعد.

١٨. البلاذري، أنساب الأشراف، القسم الثالث، ص١٠٤ – الطبري تاريخ جـ٧، ص٤٤٣.

١٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، د.ت. جـ٢. ص١٣٥ فما بعد.

٢٠. الطبري، تاريخ، جـ٩، ص١١٦.

٢١. المصدر السابق نفسه.
٢٢. انظر HALBNEN محقق كتاب اينهارد الموسوم (سيرة الإمبراطور شارل الكبير) حيث يشكك في بعض رواياته.
٢٣. راجع مجيد خدوري، الصلات الدبلوماطيقية بين هارون الرشيد وشارلمان، بغداد، ١٩٣٩.
٢٤. البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ت. محمد كرد علي د.ت.ص ٥٠ فما بعد.
٢٥. ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة، بيروت، ١٩٧١، ص٢٠ فما بعد.
٢٦. ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٣، ص٢٥٤ فما بعد.
٢٧. المصدر نفسه، ٢٥٦، ٣١٠.
٢٨. محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، ١٩٦٧، ص١٤ فما بعد.
٢٩. مسكويه، تجارب الأمم، مصر، ١٣٣هـ جـ٢، ص٣٥٨. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٨٠ ص٥٠.
٣٠. انظر المقريزي، المواعظ والاعتبار، مصر، ١٢٧٠، هـ جـ٢، ص١٩٦، جـ٣، ص١٢، جـ٤، ص٣٩٩.
٣١. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٢، ص١٨٣.
٣٢. جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى، القاهرة ١٩٦٧- سهيل زكار، الحروب الصليبية، دمشق ١٩٨٥ – سعيد عاشور، الحركة الصليبية، مصر، ١٩٦٣.
٣٣. جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص٣٦ فما بعد.
٣٤. سعيد عاشور، المرجع السابق، ص١٠٣ فما بعد.
٣٥. ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٨٠، ص١٩٧.
٣٦. باركر، الحروب الصليبية، مترجم، القاهرة، ١٩٦٠، ص٥٠، ص٩٠.
٣٧. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥، جزء ١١، ص٣٦٥.
٣٨. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، مترجم، بيروت، ١٩٦٧، ص٢١٠ فما بعد.
٣٩. برناردلويس، الحشيشية، مترجم، بيروت، ١٩٧١، ص١٤ فما بعد.
٤٠. شاكر مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والمملوكي، الموسوعة الفلسطينية القسم الثاني، بيروت، ١٩٩٠، ص٤٠٥.

٤١. أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، ١٢٨٧هـ/ جـ٢، ص٨٥ فما بعد.
٤٢. رنسيمان، المرجع السابق، جـ٢، ص٧١٨.
٤٣. ابن الأثير، الكامل، جزء ١٠، ص٥٢١ فما بعد.
٤٤. عن معركة حطين انظر، ابن الأثير، الكامل، جزء ١١ ص٥٣٢ فما بعد- أبو شامة، المصدر السابق، جـ٢، ص٧٥.
٤٥. ابن الأثير، الكامل، جزء ١١، ص٥٣٢ – أبو شامة، كتاب الروضتين، جـ٢، ص٧٥.
٤٦. شاكر مصطفى، المرجع السابق، القسم الثاني، ص٤٠٩.
٤٧. راجع: دائرة المعارف البريطانية، مادة (صلاح الدين).
٤٨. ابن الأثير، الكامل، جزء ١٢، ص٦٦ فما بعد – رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جزء ٣ ص١٠٢ فما بعد.
٤٩. ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، ١٩٦٤، ص٣١٩.
٥٠. المصدر السابق، ١٩٤.
٥١. أبو شامة، كتاب الروضتين، جـ٢، ص٢٠٣.
٥٢. ابن شداد، النوادر السلطانية ص٢٣٥.
٥٣. المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، القاهرة، ١٩٥٦، جـ١، ص١١٠
٥٤. دائرة المعارف البريطانية، مادة (صلاح الدين).
٥٥. المقريزي، السلوك، جـ١، ص١٦٤.
٥٦. المصدر السابق، جـ١، ص٢٥٨ فما بعد.
٥٧. المصدر السابق، ص٢٣٠.
٥٨. المصدر السابق، ص٢٣١.
٥٩. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص٤٢٢.
٦٠. سوادي عبد محمد، أضواء على التحالف الصليبي المغولي، ،مجلة المورد، ١٩٨٧، بغداد، ١٧٤ – ١٨٩.
٦١. المقريزي، السلوك، جـ١، ص٤٢٩ فما بعد.
٦٢. المصدر السابق، جـ١، ص٤١٤.
٦٣. المقريزي، السلوك، جـ١، ص٤٣٩ فما بعد.

٦٤. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، بيروت، د. ت.، جـ٣، ص١٩٢ - المقريزي، السلوك، جـ١، ص٣٧٠.

٦٥. أبو الفدا، المصدر السابق، جـ٣، ص١٩٥ - جوزيف يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، بيروت ١٩٨١، ص١٨٥.

٦٦. أبو الفداء، المصدر السابق، جـ٤، ص٤٤٥.

٦٧. الحنبلي، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، عمان، ١٩٧٣، جـ٢، ص٣٣٥.

٦٨. سعيد عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت، ١٩٧٢، ص٤٥ فما فوق.

٦٩. عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ١٩٦٨، ص٩٩ فما فوق.

٧٠. المرجع السابق، ص١١٨ فما بعد.

٧١. عيسى إسكندر المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، بيروت، ١٩٦٦، ص١٦٨ فما بعد.

٧٢. ميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر، بيروت، ١٩٣٥، ص٧٧ فما بعد.

٧٣. حيدر أحمد شهاب، تاريخ أحمد باشا الجزار، بيروت، ١٩٥٥، ص٧٩١ فما بعد، لمعلومات أوفى عن الحملة الفرنسية راجع الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، ١٢٩٧هـ جـ٣، ص٤٤ فما بعد.

٧٤. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٧٤، ص٤٠٢ فما بعد.

٧٥. أسدرستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا، بيروت، ١٩٣٠، جـ١، ص٣٧ فما بعد.

٧٦. عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، بيروت، ١٩٩٠، ص٨٦٨.

٧٧. المرجع نفسه ص ٨٧٢.

78. N. MANDEL, THE ARABS AND ZIONISW BEFOR WORLD WAR I, CALIFORNIA 1980, PP. 49FF.

٧٩. راجع: فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي، بيروت، -بغداد، ١٩٧٧، ص١٨٢.

٨٠. هارولد لامب، شعلة الإسلام، (مترجم) ، بغداد، ص٦١٧.

مراجع أساسية مساعدة (قديمة)

١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٩٦٥.
٢. الباهر في الدولة الاتابكية، القاهرة، ١٩٦٣.
٣. البلاذري، فتوح البلدان، بيروت، د.ت.
٤. أنساب الأشراف، طبعة ١٨٨٣. وطبعة القدس ١٩٣٨.
٥. أنساب الأشراف، القسم الثالث، ت. عبد العزيز الدوري، بيروت ١٩٧٨.
٦. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ت. عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٢.
٧. الحنبلي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ١٩٦٨.
٨. الدواداري، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، ت. صلاح الدين المنجد. د.ت.
٩. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، دمشق، ١٣٣٣ هـ.
١٠. العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، دار السعادة، ١٣٢٨هـ.
١١. تهذيب التهذيب ، حيدر أباد، ١٣٢٥هـ.
١٢. ابن كثير، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة، د.ت.
١٣. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦.
١٤. المقريزي، إيقاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، القاهرة، ١٩٦٧ -١٩٧٣.
١٥. السلوك في معرفة دول الملوك، القاهرة، ١٩٥٦.
١٦. أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، برنستون، ١٩٣٠.
١٧. أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت، د.ت.
١٨. الذهبي، دول الإسلام، القاهرة، ١٩٧٤.
١٩. السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت. د.ت.
٢٠. ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، د.ت.
٢١. يوسف ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، د.ت.
٢٢. الغزي، نجم الدين، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٤٥، جونيه، ١٩٤٩.
٢٣. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك ، طبعة القاهرة، دار النهضة.
٢٤. ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ (كتاب العبر)، مصر، ١٢٨٤هـ.
٢٥. ابن واصل ، جمال الدين محمد، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة، ١٩٥٣ -١٩٧٧.

٢٦. بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، ١٩٦٢.
٢٧. العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة، ١٣٢١هـ.
٢٨. الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، ١٢٩٧ هـ.
٢٩. هاملتون جب، صلاح الدين الأيوبي (دراسات في التاريخ الإسلامي) بيروت، ١٩٧٣.
٣٠. جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، بيروت ١٩٨١.
٣١. سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر الشام في عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت، ١٩٧٢.
٣٢. كامل جميل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، عمان ١٩٨٢.
٣٣. يوسف غوانمة، تاريخ نيابة القدس في العصر المملوكي ، عمان١٩٨٢.
٣٤. إحسان عباس، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، مجلة دراسات مج١٣ ، عمان ١٩٨٦.
٣٥. توفيق معمر، ظاهر العمر، الناصرة، ١٩٧٩.
٣٦. حيدر أحمد شهاب، تاريخ أحمد باشا الجزار، بيروت ١٩٥٥.
٣٧. عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دمشق ١٩٨٥.
٣٨. العرب والعثمانيون١٥١٦ -١٩١٦ دمشق، ١٩٧٤.
٣٩. قافلة الحج الشامي وأهيمتها في الدولة العثمانية، دراسات تاريخية، ١٩٨١.
٤٠. عيسى إسكندر المعلوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، بيروت، ١٩٦٦.
٤١. عبد الكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ -١٨٧٦، القاهرة، ١٩٦٢.
٤٢. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه، بيروت، ١٩٧٣.
٤٣. أحمد مصطفى زكريا، عشائر بلاد الشام، جزءان، دمشق، ١٩٨٣.
٤٤. سوادي عبد محمد، أضواء على التحالف الصليبي المغولي، المورد، بغداد، ١٩٨٧.
٤٥. إبراهيم العدوي، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط، مصر، ١٩٥٧.
٤٦. أمينة البيطار/ الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، دمشق ١٩٨٠.
٤٧. سعيد صمادة، النظام الاقتصادي في سوريا ولبنا، بيروت، ١٩٣٦.
٤٨. عارف العارف، تاريخ الحرم القدسي، القدس، ١٩٤٧.
٤٩. المفصل في تاريخ القدس، القدس، ١٩٦١.
٥٠. عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، بيروت ١٩٦٨.
٥١. فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، ١٩٧٨.

٥٢. فاروق عمر فوزي، تاريخ فلسطين السياسي في العصور الإسلامية، أبو ظبي، مؤسسة الاتحاد، ١٩٨٣.
٥٣. تاريخ فلسطين في العصور الإسلامية الأولى، كتاب منهجي، جامعة بغداد، ١٩٨٦.
٥٤. دراسات في تاريخ فلسطين، ترجمة، عزيز حداد، إشراف وتقديم فاروق عمر، بغداد، ١٩٧٣.
٥٥. مجموعة مقالات في تاريخ فلسطين ضمن الموسوعة الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٠ فما بعد.
٥٦. صلاح الدين الأيوبي والتحدي، مجلة المورد، بغداد، ١٩٨٧.
٥٧. حول العلاقات العباسية، الكارولنجية، (بحث ضمن كتاب بحوث في التاريخ العباسي)، بيروت ١٩٧٧.
٥٨. عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية، ١٩٥٨.
٥٩. فتحي عثمان، الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار القومية للطباعة والنشر. د.تع.
٦٠. محمد كرد علي، خطط الشام، بيروت ١٩٦٩.
٦١. فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (مترجم) بيروت، ١٩٥٧.
٦٢. محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، ١٩٦٧.
٦٣. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، الطبعة الثالثة، د.ت.
٦٤. مصطفى الدباغ، الموجز في تاريخ فلسطين، بيروت، ١٩٥٧.
٦٥. بلادنا فلسطين، بيروت ١٩٦٥ – ١٩٦٧.
٦٦. الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في فلسطين، بيروت، ١٩٨٠.
٦٧. منظمة المدن العربية، كنوز القدس، إيطاليا، ١٩٨٣.
٦٨. يوسف غوانمة، الحياة العلمية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي، عمان، ١٩٨٤.
٦٩. محسن إبراهيم، فضائل بيت المقدس، الكويت، ١٩٨٥.
٧٠. مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، بيروت، ١٩٦٥.
٧١. نظير حسان سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧.
٧٢. ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية (مترجم) بيروت، ١٩٦٧-١٩٦٩.